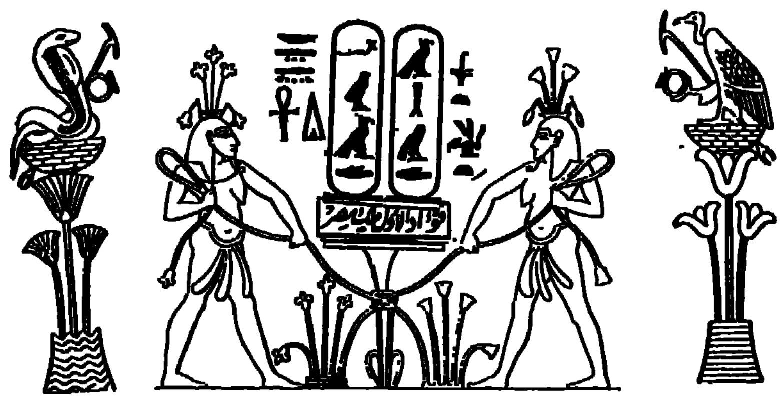
النيل

في عهد الفراعنة والعرب

لواضعه

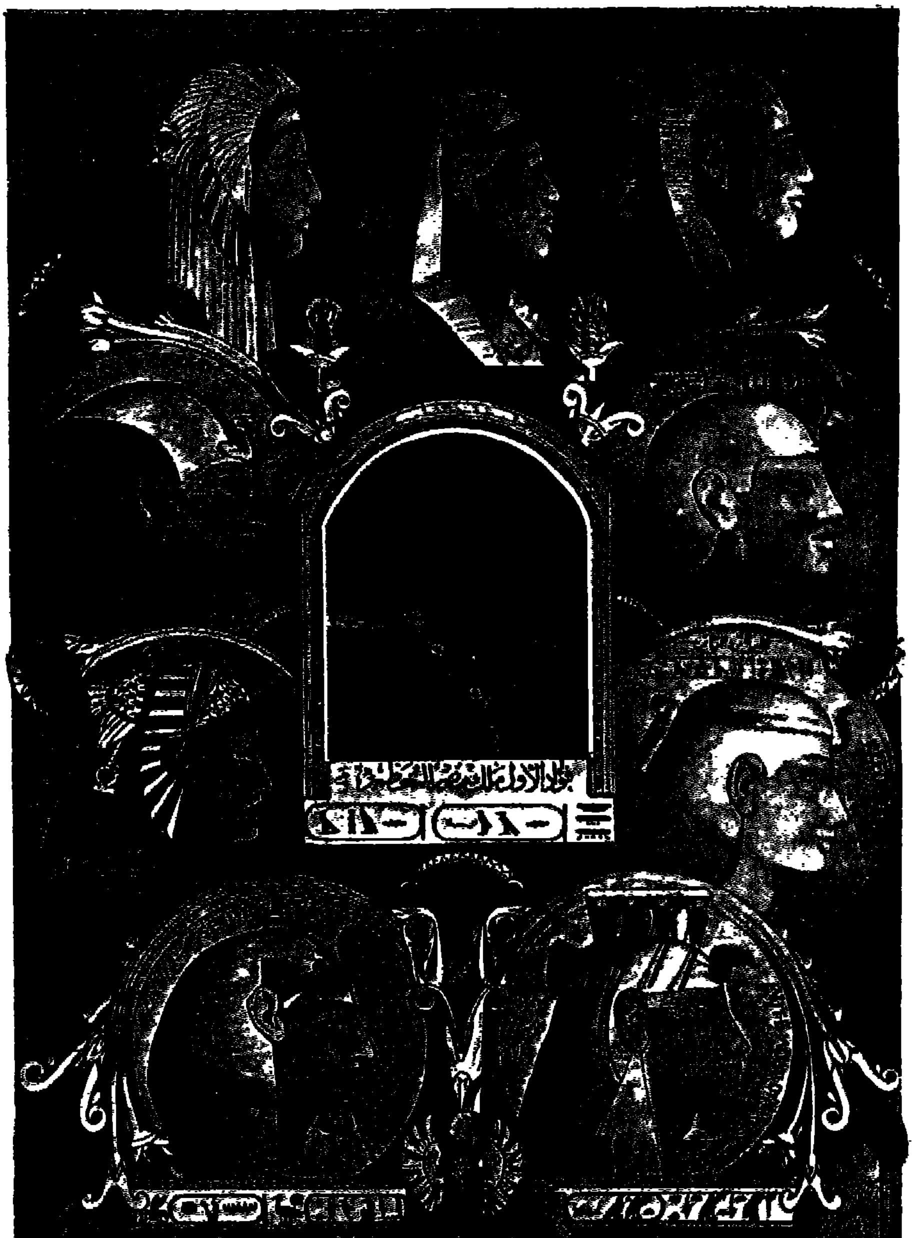
أنطون زكري

أمين دار كتب المتحف المصري



الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م



مطبعة المعارف بمصر

حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول

أول ملك جلس على عرش مصر بعد دول الفراعنة المرسومة صور عظمائهم حول رسمه الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

على غير ما اعتاده بعض الكتاب من اتخاذهم عادة فى ما يؤلفون و يكتبون وضع مقدمات كيان للفن الذى يشتغلون به ، أو المواضع التى يوفقون للإجادة فى مباحثها تشويقاً للقراء ، وتنبيهاً عن أهمية ما يتصدرون للاطناب فيه ، بما أوتوا من براعة واقتدار حتى يكون المطلع على اشتياق لما تزفه الأقلام للأفهام

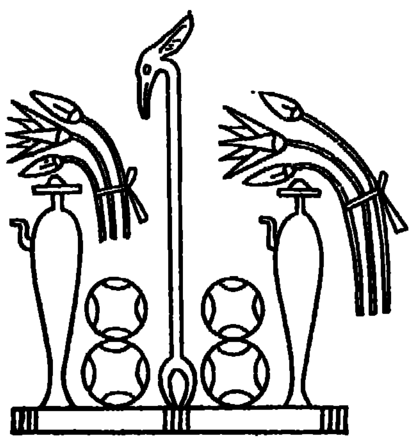
قد رأيت فى هذا المؤلف اجتناب الإطالة فى التمهيدات والمقدمات ، اكتفاء بأن الموضوع المقصود بالبحث والبيان هو النيل ، والنيل ذو أهمية بذاته لا تحتاج معالجة لأثارة الأشواق واستفزاز الفطن ، لأن النيل ومزاياه وتوقف حياة البلاد عليه تكاد أن تكون فى حكم المعلومات الفطرية ، التى تنبعث الأذهان بطبيعتها إلى حب الإطلاع على كل ما يتعلق به من المباحث التاريخية والمعلومات الفنية التى جادت بها القرائح فى قرون ماضية ، لا زلنا نقتفى آثارها فى الارتشاف من مناهلها والحرص على الاستفادة من كل جديد مفيد

النيل فى عصر الفراعنة وفى عصور الفتوحات الاستعمارية إلى عصر الفتح الاسلامى وما يليه ، أخذ عناية دائمة بالمحافظة على فوائده من كل دولة كان لها حق السيطرة على هذه البلاد

لهذا تحتم عندى التلخيص بأقصى مستطاع لكل المعلومات الزمنية للنيل وتطوراته فى كل هـذه العصور ، اعترافاً للرجال المصلحين فى كل أمة بالفضل الذى بذلوه لفائدة العمران فى المحافظة على مياهه وانتفاع بلاده ببركات فيضه

فلنا المعذرة إذا قصرنا بحثنا على أدق مايهم الإطلاع عليه ، خصوصاً فيما يتعلق بالمناطق الشهيرة التى نرى فى الالماع اليها أتم كفاية لمن يهمه أمثال مباحثها العمرانية والتاريخية

فلهذه الأسباب يكون اقتناء كتابى هذا ، والتكرم بالإطلاع عليه كتشجيع أدبى لكل قارىء فيـه حظ الارتياح وامتنان الثناء ، لأن كل فرد من سائر الطبقات المصرية يشتاق لتبادل وتعميم هذه المباحث العمومية بقدر الارتباط العام لكل فرد ممن أقلته أرض مصر ببركات النيل وفيوضاته



منابع النيل

« حسب عقيدة قدماء المصريين وتقاليدهم »

قليل من المصريين من يشاهد عليه الاعتناء بالنيل ومعرفة تطوراته، بحسب النظامات الحكومية التي طرأت عليه لمناسبات تحسين الري وحسن التصريف في كميات الفيضان، وقلّ أن تجد حتى عند ذوي الاطلاع معلومات تدل على اهتمام القوم بهذا النهر الذي هو مصدر الثروة وينبوع الحياة، بل إن أغلب الأمة المصرية لا تذكر شيئاً عن النيل إلاّ في أوان التحاريق بمناسبة التشديدات التي تتخذها مصلحة الري في وضع المناوبات واحتياجهم إلى تلقي الأخبار المنبثة عن بدء الفيضان، وهذا هو منتهى اهتمام الزراع وأرباب الأطيان الواسعة. وأما أغلبية الطبقات من الأمة حتى المشتغلين بالعلوم العامة في المدارس بأنواعها وطبقات الصناع والتجار، فلا يحسبون للنيل حساباً ولا يعتنون بشيء من أخباره إلاّ في مقتضيات محدودة من الزمن، مثل حفلة وفاء النيل وباقي الاعياد المتداخلة في أشهر الفيضان عند بعض الطوائف، فاذا انقضت هذه المدة أغفلوا ذكر النيل جانباً، كأنهم ليسوا من سكان واديه أو من القاطنين في أراضيه التي كرّمها الله بالخصب والرغد وجعله لها مصدر السعادة ومهاد الثروة

أفرد كثير من المؤرخين النيل بمباحث مطوّلة عن البعثات التي كلفت باكتشاف ينابيعه وطرق سريانه في الأودية، ووسائل الانتفاع به وما تحويه مسالكه من المعادن والأتربة ذات الخواص وهذا المبحث مفيد من الوجهة العلمية التي تقبل المزيد من الوضوح، كلما تقدّم العقل العرفانيّ في ارتقائه ووصوله الى حقائق لم تكن معلومة من ذي قبل. وغرضنا في هذا الكتاب

البحث الآن عما كان للنيل من المزايا الخاصة المترتبة على عقائد وتقاليد تداولها قدماء المصريين حسب اعتقادهم. فمن ذلك ما قاله هيردوت «إنما مصر هدية من هدايا النيل» وكلمته هذه الصغيرة تشمل وادى النيل بأسره لأن النيل كشريان الحياة بفيضاناته الدورية التى يعبر عنها فى أقاليم الصعيد بلفظة « دميرة »

والبداهة ترشدنا الى أن مجرى النيل وما يحيط بشواطئه كانا جزء اغتصبته سطوة النيل من مجموعة الاقاليم ، واختص هذا الجزء المغتصب بالمقتضيات الطبيعية من الخصوبة ، فجاد بحسن الانبات وامتاز بالموقع الثمين وأحاسن المجهودات الانسانية التى ابتدع الأهالى طرائقها ووسائلها فى تقسيم المناطق الى بلدان وحيضان وحدائق ، واتخذوا لكل موقع ما يناسبه من الاحتياطات الزراعية ، ولم يشيدوا المبانى فى البلاد إلاّ بأماكن محدودة من أطرافها ، لتكون مناطق المزارع خالية من عوائق التقسيم والترتيب وحرية الانتفاع ، وليكون أهل كل قرية عوناً لبعضهم فى حقوق الجوار والارتفاق وصد الطوارئ جرياً على عادة المجاملات التى كانت راسخة فى أخلاق المصريين قبل أن يتغلب عليها التقليد الأجنبي الحاضر الذى أفقد النفوس كثيرا من مزايا التعاون والمحبة والاخلاص

وكان قدماء المصريين يحملون للنيل احتراماً اعتقادياً ، لكونه السبب الفعال فى صيانة أرواحهم من مهالك القحط والجدب ، وانتشار الفاقة واستحكام الضيق ، إذ كان عوامّ الناس وخاصتهم مقبلين على الزراعة والاعتناء بها أكثر من كل شىء . ولم يكن الاعتناء بالصناعات والأحوال الأخرى الأدبية إلاّ فى بعض المدائن التى كانت تقوم بالحاجة الكافية لمجموع الأهالى، وبهذا كانت التجارات على جانب من الرواج وأولوا البراعة فى العلوم كانوا على منتهى درجات الاحترام والتوقير، اعترافاً بفضلهم وتشجيعاً لذوى الاستطاعة على أن يحذو

النجباء حذوهم فى فضلهم ومعارفهم . وكانوا يقدمون للنيل بعض اعتبارات كالعبادة ويسمونه (حعبى) أى الآله المقدس

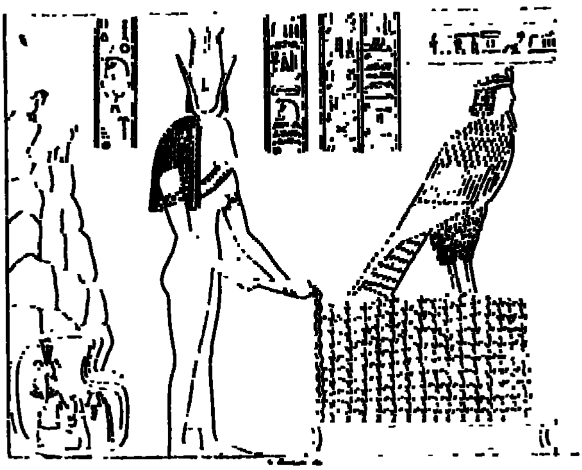
وعدم إلمام المصريين القدماء بمعلومات عن منابع النيل كان شأناً عاماً، ولا يعدونه تقصيراً فى الوجهة العلميـة . وقد لاحظ ذلك المؤرّخ الشهير هيردوت الذى قدم لمصر قاصداً البحث ، وجمع الاستدلالات فى هذا الشأن حتى قال لم يعرّفنى أحد شيئاً من منابع النيـل ، وأيدتْ رأيه أنشودة النيل القديمة التى كانوا يترنمون بها فى المواسم والأعياد ويعترفون فيها « بأن النيل آتٍ من الظلمات »

وذكر فى كتاب الموتى « ان النيل مولود من رع » أى الشمس التى هى أكبر الآلهة عنـد المصريين القدماء . ويقرب من هذا المعنى أنه وجد مكتوبا فى ورقة بردية (من ضمن أوراق كتب التحنيط) نصٌّ بالمعنى الآتى (فى بطاقة عند مقبرة أحد الموتى) : «انك أيها الراحل فى لحد الخلود ، سيفيض عليك النيل فى مضجعك الأخير أثراً من بركاته ، لأن ماءه آتٍ من مدينة أبو (أى جزيرة أسوان)، وهذا النيل ينفجر من هُوّتِهِ ، هذا (نو) الخارج من ينبوع صخرى كأن الفيضان يفور من خزانته والمياه تتدفق من ينبوعها»

وقد قال المؤرخ هيردوت ان أمين معبد الآلهة (نيت) بمدينة سايس أخبره بأن بين مدينة (سيين) بطيبة ومدينة جزيرة أسوان جبلين أولهما يدعى باللغة المصرية القديمة (كروفى) أى هوته والثـانى (موفى) أى مياهه . وبين هذين الجبلين تنفجر منابع النيل من هوة عظيمة وينصب المـاء منها طبقاً لطبيعة الحواجز الصخرية هناك الى شطرين أحدهما الى مصر فى الشمال والآخر الى أثيوبيا فى الجنوب

وقد اجتهد هيردوت لمـا أتى مصر بمباحثه العلمية من الوجهة الجغرافية

وعالج كثيراً من طبقات الكهنة ، فلم يبوحوا له بشيء من معلوماتهم إلاّ فيما يتعلق بعظمته المشهورة ومكانته الراسخة فى النفوس كمعبود يؤدون له فرائض العبادة والاجلال ما استطاعوا، وخصوصاً فى الأوقات التى حددوها لذلك عند بدئه فى الزّيادة و بلوغه منتهى الفيضان ومبادئ تصريفهِ فى الأقاليم، ورتبوا على ذلك الأعياد والمواسم الشهيرة التى لازالت تراعى فى الاحتفالات والمظاهر السنوية ترحيباً بوفائه ، وشكراً لما يغدقه على الأرض من نعيم الخصوبة والرغد



وقد اكتشفوا فى معبد بيلاق الذى شيده الامبراطور (تراجان) ، واحتفظ عليه خلفاؤه من بعده رسماً يمثل لنا الإله حعبى (النيل) فى مخبئه ، وتفسير هذا الرمز انه يوجد فوق صخور مرتفعة عليها رسما الصقر والباشق ، وفى حجرة يرى بداخلها هيكل إلهى لإله راكع ، حاملاً فى يديه آنية تخرجُ منها فيوضات النيل المباركة . ويجد الرائى مرسوماً على رأس الحجرة حية ملتفة على نفسها ، وبين رأسها وذنبها منفذ ضيق لمرور النيل . وهذا الرسم فسّره كاهن مدينة سايس للمؤرخ هيردوت بأنه منتهى معلوماتهم عن منابع النيل ، فهو فيض من عند الله لم تصل استطاعة أمثالهم لاكتشاف أوائله غير ماهو مشاهد

للزائرين في أطراف وادى النيل . ويقصد الكهنة بذلك وقوف الأمة عند هذه النقطة وعدم التطلع الى مباحث أخرى

وكان علماء المصريين مع كثرة الرموز العلمية وسعة المعلومات المحفوظة في الصدور، والمرموز اليها في بعض المخلدات الأثرية لا يسمحون لمعاصريهم ولا لزائريهم من نجاح الممالك بالتوسع في مباحث عن ينابيع النيل وأوائل مصدر فيضه، لأنهم يعتقدون سعة البحث في ذلك ممنوعة دينياً، وتعرّض المشتغلين بها لحلول النقمات التي تنذر بها الكتب المقدسة، كل من يسعى الى عمل يؤدى إلى كفر أو ضلال . وكانوا يعتقدون أن النيل فيض من البركات الالهية يتنزل من السموات العلا الى عالم الأرض فيكون منها الرغد والسخاء وصلاحية الأرض لكل نبات يحتاجه الانسان في أدواره المعاشية . ولهذا كانوا يسمونه أب الآلهة (أتِفْ نترو) . ولم يلتفت قدماء الباحثين من المصريين الى أسباب الزيادة في النيل في أزمنة الفيضان، لاعتقادهم انه قدسيّ في تكوينه وفي تأثيره وفيما تبصر الخلائق عنه، لأنه سر من فيض البركات الإلهية، اختص الله بها هذا الوادى السعيد، وجعله الى الأبد مصدر الرفاهية والسعة والإغداق بأنواع الأرزاق التي تفي باحتياجات قاطنيه، وبسد العوز لكل الطبقات التي تأوى اليه ويجدون فيه ومن سجايا أهله حرماً آمناً .

وقد اجتهد علماء المباحث المصرية عن النيل وينابيعه ومصادره العليا، مثل هيردوت وسترابون وديودور الصقلي، وعلماء الرومان كالمؤرخ بلين وسنيك وغيرهم من الفلاسفة، فلم يستطيعوا سوى الوقوف عند ما ألقاه اليهم الكهنة عن عظمة النيل، وان عجائبه ترجع الى قدسية مصدره الالهي. فاضطروا للإذعان خاضعين لعقائد وتقاليد قدماء المصريين في شأنه، ولم يتجاوزوا في مباحثه الى ما وراء الشلالات . والى ذلك أشار هيردوت بقوله أن النيل

يعرف مبدؤه بعد سفر أربعة أشهر سواء كان ذلك براً أو بحراً ، وهى المدة التى كان يستغرقها المسافر فى وصوله الى جزيرة اسوان .

واستمر الناس على الاعتقاد بان ينابيع النيل مما يعسر على الباحثين حل غوامضه الى عصر الرومان، فأرسل نيرون بعثة رسمية لاكتشاف هذه المنابع، فوصلت بعد مستنقعات واسعة الى صخرين تجرى فيهما المياه فظنوهما المنابع الأولى للنيل وعادوا يتوهمون لانفسهم الظفر بما لم يستطيع غيرهم الوصول اليه.

وقال بلين أن منبع النيل آت من موريتانى (Mauritanic) الواقعة شمال افريقية، وقال سنيك أن منبعه يبتدئ فى ضواحى مدينة يلاق، وقال المؤرخ لوكين أن منبع النيل الحقيقى لم يعرفه أحد فى العالم ، ووافقه على ذلك المؤرخ اميان مرسليان أحد علماء القرن السابع للمسيح . وان منتهى ما وصلت اليه الاجتهادات وتجوال البعثات فى رحلاتها أن منابعه آتية من بحيرات افريقيا الوسطى . وكان قدماء الباحثين يضربون الأمثال بمعرفة منابع النيل فى استحالة الوصول الى غرض يرضى ويقنع الباحثين

وقال المقريزى فى وصف مصر أن النيل يظهر على الأرض بقرب وادى القمر الواقع بقرب الاستواء . وقال جرانفيل أن النيل فردوس أرضى . ولا تزال هذه العقيدة عند قدماء النوبيين رغماً عن توالى السنين وظهور الاكتشافات العلمية التى تحتم بمقتضاها أن يتحول الناس عن عقائدهم الأولى التى توارثوها فى أجيال ماضية

خطاب أحد رؤساء كهنة قدماء المصريين

الى يوليوس قيصر الرومانى

بشأن منابع النيل

من المعلوم أن حقوق الاستعمار تحتم على القائمين به البحث فى الأقاليم التى يحتلونها عن منابع ثروتها ومصادر رغدها وأساليب مجدها، ليتخذوا لهم فى هذه المصادر سطوة فعالة، لتخضع النفوس الى إرادتهم بدون أن يتجشموا فى هذا الاخضاع معاناة شاقة، لأن الاستعانة بما يعدّ من ضروريات الطبيعة فى ترويج الاستعمار من ضروب السياسة التى يتفنن فيها مهرتهم لاجتذاب الشعوب وتسخيرهم. وعلى هذا المبدأ افتكر الرومان أن يتخذوا أساليب الاستعمار المعتادة مع الكهنة البارعين فى عصر قدماء المصريين، وابتدأوا يخابرونهم عن مصادر النيل وينابيعه ليستدرجوهم بعد ذلك الى صيرورتهم فى قبضتهم، وليبوحوا لهم بطرق الدهاء وأساليب السياسة عما استأثروا به علماً حتى يتوصلوا بذلك الى السلطة الفعلية فى هيمنة الأعمال وتسخير الظروف الى ما يشاؤن.

وقد جاء فى أنشودة النيل مايشير الى أنه بطبيعته فيض سماوى، يحيي به الله الأرض بعد موتها، وان ارتسام هذا المعنى فى خيالات الكهنة مكنهم من اختراع الروايات والأقاصيص ليحفظوا لأنفسهم مركز الاختصاص بالمعلومات الدقيقة، وليخلدوا لهيمنتهم على الشعب صفة أدبية أبدية

وقد روى الكهنة للمؤرخ اليونانى هيردوت فى القرن الخامس ق . م وليوليوس قيصر الرومانى فى القرن الأول ق . م أقاصيص نظمها الشاعر الرومانى ليكين (Lucain) باللاتينية، وسردها بأسلوب خطاب بعثه رئيس

كهنة قدماء المصريين الى يوليوس قيصر الرومانى بشأن هذه الينابيع ويحق لى التنويه بأنى أول من وفق إلى ترجمته الى اللغة العربية وإليك فحواه بالاختصار .

« أخطأ الأقدمون فى تعبيرهم بأن النيل يزداد فيضانه عقب ذوبان الثلوج فى جبال اثيوبيا ، لأن سكان تلك الجهة من حرارة الشمس تبدو جلودهم سمراء ، كما أخطأ الزاعمون بأن منابع الأنهار المتكونة من ثلوج يذيبها الحر وتزداد فى أوائل فصل الخريف ، لأن النيل لا تبتدئ زيادته قبل أن ترسل نجمة الشعرى اليمانية أشعتها إلى الأفق ، وقبل أن يتساوى فى ميزان الأفلاك زمن الليل والنهار »

« فنواميس النيل ليست كنواميس بقية الأنهر ، ولم يزدد فيضانه فى الشتاء . فبعد ابتعاد الشمس عن درجات المقارنة الأفقية لها فى فصل الصيف تتدفق المياه بنسبة تعويضه عن ذلك . وقد اختص النيل بلطافة حالة الجو ، فهو يفيض فى منتصف الصيف حينما تكون منطقة الأرض الحارة مانعة عن الحيلولة بتأثير القيظ ، فيأتى النيل مساعداً للعالم فى ارجاء واديه ، وقد يتجه أمام وجه برج الأسد المتأجج بالحرارة ، ويبادر بلدة سين (Syène) المحترقة ببروج السرطان فلا ترتفع مياهه قبل نزول الشمس فى الخريف ، ويتسع الظل فى بلدة مروى (Méroé) (وهى بقرب شندى عاصمة المملكة المصرية بالسودان) فلن يستطاع بيان السبب لسعة وادوار فيضك أيها النيل لأن القدرة الإلهية هى التى نظمته بقدر حاجة العالم اليك »

« وأخطأ القدماء أيضاً فى نسبتهم زيادة الفيضان إلى هبوب الرياح فى وقت طويل ، تكون الأمطار فيه مجبورة على أن تجود بقطراتها على هذا النهر وتدفعه بلا انقطاع الى المنافذ الكبيرة التى تسيل على شواطئ البحر الأحمر ، ولوجود حواجز أمامه تعوق سرعة انحداره ، ويتدفق فى الجداول والجهات

التى تستفيد مزارعها وحقولها لوصول فيوضاته اليها»

« ومن الخطأ أيضاً التصديق بأقوال من زعموا أن فيض النيل ناتج عن قنوات مارة تحت الأرض ، أو ثقوب مفتحة الأفواه فى حفر واسعة تنحدر اليها المياه فى مسافات عميقة آتية من الجهات الباردة فى الدب الاكبر وسط قطب الدنيا ،وان حرارة الشمس لما تضعف عند بلدة مروى تجلب مياهها وتجذب النهرين الكانج والألب بمسالك خفية يقذف عندها النيل تدفقاته إلى هذه الأنهار فى منبع واحد ، ولكنها لا تستطيع السريان فى هوته فيدمج الأرض حين يغمرها ، وينتزع من بعض طبقاتها الأملاح الكامنة فى طول مجراه»

« وظن البعض أن الشمس والهواء يجتذبان الماء من المحيط ، ولما تصل الشمس الى المنطقة الحارة أمام برج السرطان ينشق المحيط ، ويأخذ مياهاً أكثر من الجو ، وهذه الزيادة تنقلها الأعاصير إلى النيل»

« وأرجوك أيها القيصر أن تسمح لى بأن أشرح لك تحليلات هذه المسألة العويصة فأقول :

« أن مياه النيل منذ بدء الخليقة تتسرب من عروق فى الارض، أوجدها الله لتكون مجراه الطبيعى، تسيره القدرة الالهية بأنظمة وقوانين فوق مقدورات أمثالنا وأمثالكم . أتريد يارومانى معرفة منابع النيل ، وقد اهتم قبلك بالبحث فى موضوعها الملوك المصريون الجبابرة والعجم والمقدونيون منذ أجيال ، ولم يتغلبوا على قوة الطبيعة فى شىء وأراد اسكندر ذو القرنين أكبر ملوك الأرض فى عهده والمعبود الأعلى فى مدينة ممفيس معرفة منابع النيل ، فأرسل بعثة فى أواخر إثيوبيا ، وهناك عاقتها حرارة الجوّ الملتهب . وذهب سيزوستريس الى الغرب والى أقاصى الدنيا تجرُّ الملوك عربته وكان فى استطاعته أن يشرب من

منابع أنهاركم (كالرون والبو) فان ذلك أسهل عليه من أن يشرب من منابع النيل. ووصل كمبيز الأحمق الى الشرق بين الذين يعمرون طويلا ، ولما غابت عنه المؤونة ذبح رجاله والتهمهم بدون أن يعرف منابع النيل ، ولم يستطع أحد فى القصص والروايات الوصول الى مقر منبعه ، ولم تدخر الأمم وسعاً فى السعى الى اكتشاف منابع النيل . وانى أدرك حكمة الآلهة الذين أرادوا صيانة مجراك أيها النيل ، من أن يستطيع أحد الوصول الى منتهاك البعيد المدى ، فانك تقوم وسط قطب العلم ناصباً شواطئك أمام برج السرطان المضطرب ، فتسرى الى الجهات ، وتراك فيها الشعوب القاصية والدانية ، وتبحث القاصية عن منبعك ثم تعود مقهورة الى حقول اثيوبيا المرتويه من مياهك الغربية ويجهل العالم منبعك»

«وقد أعطيت وحدك أيها النيل حق الامتياز لتسير من قطب لآخر. يبحث الناس فى بداية مجراك ونهايتك ، تتسع مياهك ثم تضيق لتحيط مروى ، وسكانها قوم سود الوجوه يفتخرون بغاباتهم المملوءة بخشب الأبنوس الكثيرة الأوراق ، ولا يوجد هناك ظل يخفف حدة الحرّ ما دام برج الأسد يرسل حرارته على خط مستو على وجه الأرض ، فتمر فى منطقة الشمس بدون أن تضيع شيئاً من مائك . تدعو قريباً تحت طبقتك مياهك المقسمة إلى حدود قبائل العرب وأراضى يلاق (فيلا) التى هى منتهى حدود مملكتك المصرية . وعند ميلك تخطط الصحراء بممر التجارة بين البحر الأحمر وجبال ليبيا »

«أرتنا لجج النيل عند ما تحتد ، فيلاق مجراها فى مسيره عراقيل وشلالات سريعة تعترضها بعض الصخور فى الصحراء ، ولكن لم يوقف مياهك شىء فحينئذ تلقى الزبد حتى الكواكب ، وكل شى يخشى اضطراب أمواجك ويتذمر الجبل تحت بياضها احتراماً لأنك النهر الذى لا يقهر ، وبعد ذلك تظهر الأرض المقدسة والصحراء المعروفة بشرايين النيل لأنها تبشر بالفيضان فى

أوائله عقب أن أغلقت الطبيعة أبواب المجارى بمياهك المتشردة عن دخول بلاد ليبيا بحاجر الجبال فى هذا الوادى العميق الذى فيه يجد مجراك نظامه المألوف ويتقدم بهدوء وسكينة ، ويبتدىء من مدينة ممفيس التى تسلم اليك حقولها وتفتح أبواب السهول والوديان ، ولا يوجد على شواطئك حواجز تعتبر حداً لفيضانك »

« بحث العالم القديم والحديث فى منابع النيل »

فوق المزايا العلميـة والصناعية التى امتازت بها مصر فى قرونها الأولى قرون العظمة والاسعاد ، والتفوق الباهر على سائر الأمم ، خصَّ الله هذا الاقليم بالنيل المبارك ، وهو أكبر المنن الالهية التى جعلت كافة مواهب البشر أمامها لا تكاد أن تكون شيئاً مذكوراً . فالنيل هو ينبوع الحياة ومهدُ الارتقاء ووسيلة الحياة الخالدة ورغد العيش المزيد . فكلما أمعن الباحثون فكرتهم فيما تقله أرض مصر من العجائب الصناعية والهياكل والآثار والمبانى التى قاومت العصور ظاهرة فوق بعض المواطن وتحت بطون الأرض فى غيرها ، يرتدُّ اليهم طرف مجهوداتهم الفكرية حائراً ذاهلاً ، كلما رأى النيل يتماوج باعاجيب المناظر ويتدفق فى مجاريه بأوفر الخيرات على بلاد أسعدتها الطبيعة بأن يفيض عليها من كنوزه وخيراته ماجعلها تمتاز بسعة الخصب وقوة النماء . وان أهاليها كلما جَدُّوا فى الأعمال الزراعية ، جادت عليهم بأضعاف ما كانوا يتمنون فى مبادىء أعمالهم ، فينشطون على الدوام الى التوسع فى استخدامها بقدر ماتشجعهم عليه سعة الآمال ، فلا تضنُّ الأرض بما استودعت من المزايا ولا تكلّ السواعد ولا الهمم عن اجتنـاء أطيب الثمرات واحراز الأرباح الوافرة . وهكذا كان المصرى وبلاده فى دور نشأته الأولى وسعادتها الماضية كل على

صاحبه يجود بأقصى المنح ، فتجدد للأراضى زيناتها النباتيـة وتتنوع لأقوام الشعب موارد ثروتهم المالية

كانت مصر بهذا الاعتبار مصدراً للمعجزات العقلية ، لأن خصائصها الشهيرة ومميزاتها المدهشة لم تجتمع فى غيرها من الأقاليم ، وكفى أن منابع النيل وأدوار فيضه وتطورات انتقاصه واستمرار مجاريه على حالة لا تعوقها الرواسب ولا كميات الرمال التى تذروها الرياح فى المناطق قد جعلت ألباب الباحثين حيارى . وطالما عاق الأقدمين الوصول الى حل مسائله العويصة ، ولكنهم وقفوا أمام أقاويل وآراء كل فريق يدلى فيها بحجته التى يؤيد بها رأيه على رأى مناظريه وامتدت بالقوم العصور الغابرة بدون أن يصلوا فى هذه النقط الى تمحيص نهائى يرفع النقاب ويزيل الشكوك

وروى فى عصر فايتون الخرافى رواية أشبه الى الخيال منها الى الحقيقة ، إذ قيل فيها أن النيل كأنه لما رأى قرب الشمس من الأرض خشى من احتراقه بلهيبها فأخفى رأسه فى آخر الكرة الأرضية . والى القرن السابع عشر ق . م لم تصل مباحث المؤرخين الى رأى سديد فى حقيقة ومبادىء منابعه

وقد أفرغ الفراعنة مثل سيزوستريس (رعمسيس الثانى) وغيرهم جهداً كبيراً من عنايتهم للوقوف على حقيقـة الينابيع فما استطاعوا . ولما قدم الى مصر هيرذوت وابتدأ مباحثه عن الينابيع لم يرشده أحد ، وذكر أن بسامتيك أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين ألّف بعثة مكونة من ٢٤٠٠٠٠ رجل ، وأمدها بكل ما تحتاجه لتسهيل العقبات فى مسيرها والوسائل الصناعية الأخرى فى نقل الأحمال والمؤن والوسائل الدفاعية اذا صادفها شىء من ذلك ، وترتيب وصول المعلومات منها اليه عن الأقاليم التى تجتازها ، والمناظر التى اهتدت اليها وعجائب الأودية والقبائل ، وأمدها بسعة الاغداق والمعونات

الكبرى لتشغلب بالبذخ والسخاء والمعدات الكثيرة على انجاح مأموريتها، فقضت فيها بعض السنين وعادت من حيث أتت ولم تدوّن غير اكتشافات جغرافية عن بعض المواقع فى تلك المجاهل . ثم استحكمت هذه الفكرة لدى اسكندر المقدونى وكمبيز، ورتب كل منهم فى عهده رحلة خاصة وأمدّها بأساليب أقرب فى الوصول الى الغاية المطلوبة وأسهل منالاً فى الاستكشافات والتوسع فى المعلومات ، فعادت كباقى البعثات الماضية راضية من الغنيمة بالإياب

وفى القرن الثالث ق . م . فى عهد بطليموس افرجت (Evergète) تكلم المؤرخون عن منابع النيل ، فكانت آراؤهم متطابقة مع المعنى الذى أورده الشاعر الرومانى فى كتابه المعروف بالفرساى (Versailles) على لسان يوليوس قيصر أن النيل يخفى رأسه عن الانظار كحسناء لا تبرح عن دلالها مهما أطال اليها المشوق الضراعة والاستعطاف . فالنيل يستمرّ فى مجاريه فياضاً متدفقاً بينما أفكار الباحثين تكدّ وتجهد وتعود بالملَل والضعف

وفى القرن الأول ق . ب . أبدى « جوبا » ملك « موريتانيا » رأيه عن منابع النيل وتبعه فيه بلين وميلا والمؤرخ ديون كاسيبيُس وهو أن منابع النيل القاصية لتعمقها تحت الصخور والتجاويف العميقة بتلك الأودية والوهاد، لا يستطيع أفراد البعثات التى تنتدب من أجله خوض غمار تلك المياه، وفى هذه المنابع الفجوات التى تتفاوت بين الضيق والسعة والمنعطفات الطويلة إلاّ اذا تطوعت بحياتها للخطر الذى لا يحتمل معه عود بعض أفرادها لينبىء الباقين عما رأت عيناه ووعته ذاكرته من هذه المناظر وعجائب تكوينها

وقال بطليموس الجغرافى المولود فى القرن الثانى ب . م . إن منابع النيل تلتقى فى بحيرتين كبيرتين بأنحاء خط الاستواء ، ولا يستطيع الغرباء التجول الى ما وراءها ، لأن الأذهان ممتلئة بالروايات المنفرة عن وجود الوحوش

والحيوانات الضارية التى تفتك بكل من أراد المسير فى غاباتها أو مغاورها

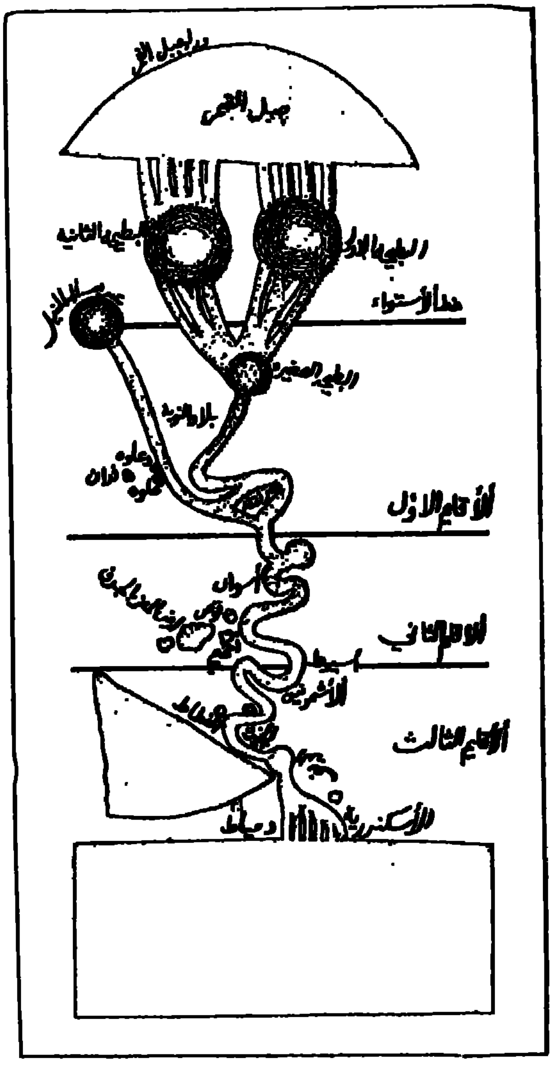
جاء العرب بعد اليونان خلفاء لهم فى الاستعمار ، وحكموا مصر واستولوا على بلاد النوبة وغيرها من البلاد المجاورة لمنابع النيل ، وأحكموا صِلاتهم التجارية والسياسية مع السودان وشعوب افريقيا الجنوبية ، واتخذوا هذه التمهيدات وسيلة لوصولهم إلى ما عجز عنه أسلافهم فى تلك الأقاليم المجهولة

ومن مشاهير العرب الأجلاء الذين صرفوا وقتاً مديداً وعزما صادقاً فى الوقوف على معلومات صحيحة بشأن منابع النيل الإمام الشهير احمد بن محمد ابن عبدالسلام المنوفى نسبة إلى منوف فى نهاية القرن التاسع الهجرى ، وكان إماماً فى العلوم الإسلامية وتواريخ الأمم ، احترمه كثير من العلماء وأئمة البحث وعظماء الشعوب ، ونقلوا عنه فى مؤلفاتهم . وكان يثبت لتلامذته ان العلم الصحيح والتقوى توأمان ، فمن لم يزدد عقله بقوة الايمان الذى هوفوق نواميس الطبيعة يكون دائماً فى تردد الحيرة والضلال . دوّن هذا المؤلف الشهير كتاباً عنوانه « الفيض الجديد فى أخبار النيل السعيد » . وتوجد منه الآن نسختان خطيتان احداهما فى دار كتب مرسيليا ، والثانية فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تكلم فيه عن منابع النيل وأصله واستمداده وطوله وعرضه ، وتضمّن ابحاثاً وافية فلخص منها ما أورده من الفوائد فى الباب الأول (فى الفصل الآتى)

ثم جاء نابليون مصر مع بعثة علمية بحثت فى أحوال البلاد وأمورها ودونت عنها مؤلفات كثيرة ولكنها لم توفق للبحث عن منابع النيل

وفى سنة ١٨١٩ أرسل محمد على باشا بعثته العلميـة الشهيرة يرأسها جاليادرو المهنـدس الفرنسى ، فسافر الى الخرطوم وقال فى مذكرته أن منابع النيل تبتدىء من جبال القمر

وفى سنة ١٨٥٦ توسع فى الاستكشاف كل من الباحث برتون وبيك



خريطة وادى النيل لبطليموس نقلا عن الخوارزمى

ويبكر الى ماخلف بحيرتى (فكتوريا والبيرنيانزا)، وتحقق أخيراً انهما أهم المنابع التى يتكون منها النيل . وقد ساعدت الاكتشافات الأخيرة رجال أوربا على التجول فى أواسط أفريقيا، واستطاعوا الوصول الى قولٍ عززوه ببراهين الاكتشافات والرحلات المتوالية فى هذه الأقطار ، وكلل النجاح سعيهم وكانوا مصداقاً للمثل القائل بأن من لازم السير فى الدرب وصل الى مرحلة النجاح . (كما سيأتى بيانه تفصيلاً)

« رأى العرب فى منابع النيل »

وفاء بما أجملناه فى هذا البحث نثبت هنا ما جاء فى كتاب « الفيض الجديد فى أخبار النيل السعيد » تأليف الشيخ العالم احمد بن محمد بن عبد السلام المنوفى فى ذكر منابع النيل الذى هو من اكبر الثقاة فى المباحث العلمية

ذكر المؤرخون فى أصل منبعهِ من مبتداه الى منتهاه أقوالاً فقال اكثرهم ومنهم الحافظ بن كثير فى تاريخه الكبير إن مبتداه من الجبل القُمْر (بضم القاف وسكون الميم) أى البيض ، ومنهم من يقول « جبال القَمَر » (أى بفتح القاف) بالاضافة الى الكوكب وهى غربى الأرض وراء خط الاستواء فى الجانب الجنوبى . ويقال انها صخور تنبع من بينها عيون ثم تجتمع من عشرة مسيلات متباعدة ، ثم تجتمع كل خمسة منها فى بحيرة ، ثم يخرج منها أنهار ستة ثم تجتمع كلها فى بحيرة أخرى ثم يخرج منها نهر واحد وهو النيل فيمر على بلاد السودان بالحبشة[1] ثم على النوبة ومدينتها العظمى دنقله ثم

---

(١) تعنى كلمة الحبشة شعباً خليطاً أعطى هذا الاسم لهذه البلاد بسبب الشعوب المختلفة الذين أختلطوا بأهلها الاصليين . وينبئنا التاريخ أن الحبشة أستولى عليها بالتتابع الاثيوبيون وقدماء المصريين واليهود والعرب. اه

أعلى اسوان ، ثم تظهر على ديار مصر ويحمل اليها من زيادات أمطارها ، ويجرف من ترابها وهى محتاجة اليها معاً ، لأن مطرها قليل لا يكفى زروعها وأشجارها ، وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجى النيل بزياداته وطينه ، فينبت فيها ما يحتاجون اليه وهى من أحق الأرض دخولاً فى قوله تعالى : «أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه انعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » ، ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق فرقتين عند قرية على شاطئيه يقال لها شطنوف وهى من عمل القليوبية ، فيمر الغربى منه على رشيد ويصب فى البحر الملح ، وأما الشرقى فيفترق أيضاً عند جوجر فرقتين يمر الغربى منهما على دمياط من غربيها ، ويصب فى البحر الملح ، والشرقى منهما يمر على أشمون طناح فيصب هناك فى بحيرة شرقى دمياط يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط[1] ، وهذا بعد بُعد عظيم من ابتدائه الى انتهائه ولهذا كان ألطف المياه

(وقال ابن القيم فى كتاب الهدى) : النيل أحد أركان الجنة ، أصله من وراء جبال القمر فى أقصى بلاد الحبشة من أمطار تجتمع هناك وسيول يمر بعضها بعضاً ، فيسوقه الله تعالى الى الأرض الجرز التى لا نبات بها ، فيخرج به زرعاً تأكل منهُ الأنعام والأنام ، ولما كانت الأرض التى يسوقه سبحانه اليها ابليزاً صلبة ، إن أمطرت مطر العادة لم ترو ولم تتهيأ للنبات ، وان أمطرت فوق العادة أضرت الناس والمساكن ، وعطلت المعائش والمصالح ، فأمطر سبحانه البلاد لعبيده ثم ساق تلك الأمطار الى هذه الأرض فى نهر عظيم ، وجعل سبحانه زيادته فى أوقات معلومة على قدر رى البلاد وكفايتها ، فاذا

---

(١) بحيرة تنيس أو بحيرة دمياط معروفة اليوم ببحيرة المنزلة

(٢) يقول جغرافيو العرب ان هذه البحيرة أصل نهرين الاول نيل السودان والثانى نيل مصر

روى البلاد وغمرها أذن سبحانه بتناقصه وهبوطه لتتم المصلحة بالتمكن من الزرع

وقال قدامة ان منبع النيل فى بلاد القَمْر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار كل خمسة منها تصب فى بطيحة فى الأقليم الأول ، ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل

وقال صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ان هذه البحيرة تسمى بحيرة كورى [٢] منسوبة الى طائفة من السودان ، يسكنون حولها متوحشين ، يأكلون من وقع اليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر النيل ، وإذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى [١] ثم بلاد قنّه طائفة من السودان أيضاً وهم بين كانم [٢] والنوبة ، ثم يغوص فى الرمال ويمر تحت الأرض مكتوماً من الجنوب الى الشمال ؛ ثم يظهر ببلاد النوبة ، فاذا بلغ مدينة دنقلة عطف من غربيها إلى المغرب ، وانحدر الى الاقليم الثانى ، فيكون على شاطئيه عمائر النوبة وفيه جزاير لهم متسعة عامرة بالمدن والقرى ثم يشرق الى الجنادل واليها تنتهى مراكب النوبة انحداراً ومراكب الصعيد الأعلى صعوداً وهناك أحجار لا تمر المراكب عليها إلاّ فى أيام زيادة النيل ، ثم يأخذ إلى الشمال فيكون على شرقيه مدينة اسوان من بلاد الصعيد الأعلى ، ثم يمر بين جبلين هما مكتنفان لأعمال مصر أحدهما شرقى والآخر غربى حتى يأتى مدينة مصر وهى الفسطاط التى بناه عمرو بن العاص ، فيكون على شرقيه ، فاذا جاوزها انقسم كما تقدم . قلت أى فى قوله فيفترق فرقتين عند قرية على شاطئيه يقال لها شطنوف إلى آخر ما ذكره

قال صاحب الأقاليم السبعة أن النيل يخرج أصله من جبل القمر من

---

(١) تحوى بلدة كورى البلاد المجاورة لقبلى كردفان

(٢) تتد كانم قبلى شرقى برنو البـلاد المجاورة للنوبة

عشرة عيون ، خمسة تجتمع فى بطيحة وخمسة فى بطيحة أى مكان منبطح من الأرض ، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان وذكر صورة جبل القمر وانه مقدس وعلى رأسه شراريف (شُرُفاتٌ عالية)

حكى ذلك عنه الشيخ العلامة شهاب الدين بن عماد رحمه الله تعالى فى جزئه الذى جمعه فى النيل وهو جزء لطيف جداً . وحكى فيه عن المسعودى أنه قال فى كتابه (مروج الذهب) وأصل النيل ومنبعه من تحت جبل القمر ومبدأ ظهوره من اثنى عشر عيناً وجبل القُمر خلف خط الاستواء يعنى الذى يستوى فيه الليل والنهار ، وأضيف الى القمر لأنه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه بسبب النور والظلمة والبُدُوّى والمحاق

قال المسعودى فتنصب تلك المياه الخارجة من الاثنى عشر عيناً الى بحيرتين هناك ، وهو معنى كلام صاحب الأقاليم فى بطيحة

قال ثم يجتمع الماء منها جاريا ، فيمر برمال هناك وجبال ، ثم يخترق أرض السودان مما يلى بلاد الزنج فينبع منه خليج ينتهى إلى بحر الزنج [1] انتهى ما أردته منه

وممن قال بانه ينبع من جبال القمر السرج الكندى كما نقله عنه ابن عماد فى جزئه المذكور ، فظهر بذلك أن اكثر المؤرخين على هذا القول كما أشار اليه صاحب الأصل بقوله فيما تقدم ذكر غير واحد من المؤرخين

وقال صاحب السكردان وفى أصل النيل أقوال للناس حتى ذهب بعضهم الى أن مجراه من جبال الثلج وهو بجبل (ق) ، وأنه يخرق البحر الأخضر [2]

---

(١) يقيم الزنوج فى الجزء الشرقى من افريقيا المعروفة باسم زنزبار

(٢) دعا جغرافيو العرب النيل الشرقى تارة البحر الازرق وتارة البحر الاخضر .

بقدرة الله تعالى ، ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد والمرجان فيسير ما شاء الله الى أن يأتى بحيرة الزنج

قال الحاكى لهذا القول ولولا ذلك يعنى دخوله فى البحر الملح وما يختلط به منه ، لما كان يُستطاع أن يشرب منه لشدة حلاوته

وقال قوم مبدأه من خلف خط الاستواء باحدى عشرة درجة . وقال قوم مبدأه من جبال القُمر وأنه ينبع من اثنى عشر عيناً انتهى ما أردته منه

وقال ابن عماد فى جزئه المذكور وذكر بعضهم أن سائر مياه الأرض وأنهارها يخرج أصلها من تحت الصخرة [1] بالأرض المقدسة والعلم عند الله تعالى انتهى . ولم يبين قائل ذلك وقد بيّنه فى موضع آخر من جزئه المذكور فقال وذكر الثعالبى فى قصص الأنبياء أن جميع مياه الأرض يخرج أصلها من تحت الصخرة انتهى . ويدخل فى اطلاق هذا القول النيل وغيره

وذكر ابن عماد فى جزئه المذكور عند كلامه فى الاستدلال على أفضلية النيل على غيره من الأنهار ، أن النيل يخوض فى البحر الملح ولا يختلط به ، بل يجرى تحته متميزاً عنه كالزيت مع الماء ، قال ولهذا يظهر لركاب البحر فى بعض النواحى فيستقون منه للشرب وذلك فى أماكن معروفة انتهى

ورأيت فى مناقب أمامنا الامام الأعظم والحبر المحترم الشافعى رضى الله عنه لأبى القاسم بن غانم المقدسى حكاية عنه تدل على أن النيل يمر ببلاد الهند وسيأتى كلامه فى الفصل الثانى ان شاء الله تعالى والله أعلم

وكان بن طولون قد سأل شيخاً كبيراً من علماء القبط عمره مائة وثلاثون سنة عن أشياء فى أحوال مصر أين منتهى النيل فى أعلاه ، فقال البحيرة التى لا يُدْرَك طولها وعرضها وهى نحو الأرض التى الليل فيها والنهار متساويان

---

(١) معبد الصخرة فى جامع سيدنا عمر بمدينة اورشليم

طول الدهر ، وهى تحت الموضع الذى يسمى عند المنجمين الفلك المستقيم .
قال وما ذكرت فمعروف غير منكور . قلت قد اختصر صاحب الأصل هذه الحكاية ، وقد نقلها الشهاب بن عماد فى جزئه المذكور عن المسعودى فقال :
قال المسعودى

« وكان احمد بن طولون فى سنة نيف وستين ومائتين بلغه أن رجلاً بأعلى مصر من الصعيد له ثلاثون ومائة سنة من الأقباط ، ممن يشار اليهم بالعلم ، وأنه علامة بمصر وأرضها فى برها وبحرها واجنادها وأجناد ملكها ، وانه ممن سافر الأرض وتوسط الممالك وشاهد الأمم فى أنواع البياضان والسودان ، وأنه ذو معرفة بأنواع هيئات الأفلاك وأحكامها ، فبعث اليه أحمد وأخلى له نفسه ليالى وأياماً كثيرة يسمع كلامه وايراده وجواباته ، فكان فيما سأله عن طول الاحابش على النيل وممالكهم قال : لقيت من ملوكهم ستين ملكا فى ممالك مختلفة ، كل منهم ينازع من يليه من الملوك وبلادهم حارة يابسة . قال فما منتهى النيل فى أعلاه فقال البحيرة الى آخر ما ذكره عنه صاحب الأصل والله أعلم

وقال أبو محمد عبد الله بن احمد الاسوانى فى كتاب أخبار النوبة من أخبار النيل ، وما شاهدت منه ومن تشعبه وتقسيمه على سبعة أبحر من بدء علوه واجتماعه ببلدة مقره وتعطفه تعطفاً عجيباً قبلى مدينتهم وافتراشه ، وأنه يجرى بحرى دنقلة حتى يكون ما بين شرقيه وغربيه نحو أربعين فرسخاً ويتضايق بعد ذلك حتى يكون عرضه دون الخمسين ذراعاً ، وتكون الجنادل معترضة فى غير موضع منه حتى يكون انصبابه فى بابين أو ثلاثة أبواب

قال وقلعة أصفون أول الجنادل الثلاثة وهى أشد الجنادل صعوبة لأن فيها جبلاً معترضاً من الشرق الى الغرب فى النيل ، والماء ينصب من ثلاثة أبواب ، وربما يرجع الى بابين عند انحداره شديد الخرير عجيب المنظر لشخور

الماء من علو الجبل ، وقبليه مرسى حجارة فى النقل نحو ثلاثة أبرد الى قرية تعوق بيسير وهى آخر قرى ميرس وأول بلاد مقره

قال أبو محمد عبد الله بن محمد الأسوانى فى كتاب أخبار النوبة عند ذكر ناحية يقرن ما نصه :

وما رأيت على النيل ناحية أوسع منها وقدرت أن سعة النيل فيها من المشرق إلى المغرب مسيرة خمس مراحل [1] ، الجزاير تقطعهُ والأنهار منه تجرى بينها على أراض منخفضة وقرى وعمائر حسنة . انتهى .

قلت وطريق الجمع بين هذا وبين ما تقدم نقله عن صاحب خزانة التاريخ ان عرضه مختلف بحسب بلاد النوبة أيضاً . فنى بعضها كما قاله صاحب خزانة التاريخ أعنى ثلاثة أميال فما دونها ، وفى بعضها كما قاله الأسوانى أعنى خمس مراحل وهذا جمع حسن ولا مانع من ذلك لأن سبيله المشاهدة والله أعلم

قالوا ومن وراء مخرج النيل الظلمة [2]

قال أبو الخطاب وخلف الظلمة ضياء فسبحان العليم القدير . وفى تاريخ ملوك مصر أن الوليد [3] أحد ملوك مصر من العمالقة كان يعبد القمر وهو أول من تسمى فرعون ، وأقام بمصر مدة ثم عنّ له أن ينظر مخرج النيل ويعرف من بتلك النّاحيـة من الأمم ، فأقام ثلاث سنين يستعد لذلك ثم جمع جميع ما يحتاج اليه واستخلف على مصر عونا ، وتوجه فمر على أمم السودان ومر فى

(١) أى عبارة عن مائة وخمسين ميلا

(٢) قبـل الوصول الى سلسلة القاف الخرافية توجد جهة مظلمة تمنع الناس المرور وربما قصد المؤلف هذه البلدة الغريبة .

(٣) أن الوليد هو ابن سانس الذى ذكره غرغوريوس أبو الفـرج فى تاريخه المختصر عن الاسر ، وانه من ذريه الملك ابن اليفاز وحفيد الاساير الذى جعل أولاده يقيمون فى أدومية المجاورة لارض مصر . وقبل عصر الوليد وفى عهد أبينا ابراهيم كان ملوك مصر يلقبون بالفراعنة

طريقه على أرض الذهب[1] وفيها أمة عظيمة ينبت الذهب في تلك الأرض كالقضبان، ثم سار حتى بلغ البطيحة التي ينصب فيها ماء النيل من الأنهار التي تخرج من جبل القمر وراء القصر الذي عمله هرمس[2]، وصعد على جبل القمر وراء البحر الزفتي الأسود، ورأى النيل يجرى عليه كالأنهار الرقاق وأتاه من ذلك البحر روائح منتنة هلك بسببها كثير من أصحابه، وذكروا أنهم لم يروا هناك شمساً ولا قمراً الا نوراً أحمر مثل نور الشمس، ثم توجه راجعاً إلى مصر وأقام بها مدة، ثم ركب يوماً إلى الصيد فظفر به أسد فقتله، ودفن في بعض الاهرام وملك بعده الريان وهو فرعون يوسف عليه السلام

قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تاريخه الكبير وأما ما يذكره بعضهم من أن منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولاً عظيما وجواري حسانا وأشياء غريبة، وأن الذي اطلع على هذا لم يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين

قلت هذا الذي قاله الحافظ بن كثير رحمهُ الله لعله أشار بِهِ الى ما حكاه ابن زولاق في تاريخه عن بعض خلفاء مصر، أنهُ أمر قوماً بالمسير الى حيث يجرى النيل فساروا حتى انتهوا الى جبل عال، والماء ينزل من أعلاه له دوى وهدير لا يكاد يسمع أحدهم صاحبه. ثم إن أحدهم تسبب في الصعود إلى أعلى الجبل لينظر ما وراء ذلك، فلما وصل إلى أعلاه رقص وصفق وضحك

---

(١) روى الشريف الادريسي : كان أهالي تاكرور بلدة واقعة في نهاية أفريقيا الغربية يعتقدون أن الذهب نبات. وروى أحد كتاب العرب حادثة غريبة في بابها. وأثبت أن الذهب نبات في غير أفريقيا، وفي سنة ٣٩٤ هـ. كان محمود بن سبكتجين السلطان الاول من الاسرة الجازنفندين يتنزه مرة في بلاد سجستان التي قهرها. فوجد في أحد جبالها شجرة من الذهب الخالص وأن طولها يمتد ثلاثة أميال تحت الجبال. ولكن في عصر حكم ابنه السلطان مسعود حدثت زلزلة فقلعت هذا الجبل وزال المنجم الذهبي. اه.

(٢) يعتقد الشرقيون وجود ثلاثة أشخاص معروفين باسم هرمس وعاشوا في عصور مختلفة، وان هرمس المذكور هنا ظهر بعد أبينا آدم بألف سنة ومشهور أيضاً باسم ادريس اه.

ثم مضى فى الجبل ولم يعد ولم يعلم أصحابه ما شأنه ، ثم أن رجلاً منهم صعد لينظر ففعل مثل الأول فطلع ثالث ، وقال اربطوا فى وسطى حبلاً فاذا أنا وصلت إلى ماوصلا اليه ، ثم فعلت ذلك فاجذبونى حتى لا أبرح من موضعى ، ففعلوا ذلك . فلما صار فى أعلى الجبل فعل كفعلهم فجذبوه اليهم فقيل أنه خرس فلم يردّ جواباً ، فمات من ساعته فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك . انتهى

قال وقلعة أصفون أول الجنادل الثلاثة وهى أشد الجنادل صعوبة لأن فيها جبلاً معترضاً من الشرق إلى الغرب فى النيل ، والماء ينصب من ثلاثة أبواب وربما يرجع الى بابين عند انحساره شديد الخرير عجيب المنظر لشخوز الماء عليه من علو الجبل ، وقبليه فرش حجارة فى النيل نحو ثلاثة أبرد الى قرية تعرف بيسير وهى آخر قرى مرسين وأول بلاد مقره

قال وأما هذه الأنهار التى مادة النيل منها والبحث عن ابتدائها والسؤال عن أوائلها ، فقد أكثرت السؤال عنها من قوم عن قوم ، فما وجدت مخبراً يقول إنه وقف على نهاية جميع الأنهار، والذى انتهى اليه علم من عرفنى عن آخرين إلى خراب ، وأنه ياتى فى وقت الزيادة فى هذه الأنهار آلة المراكب وأبواب وغير ذلك فيدل ذلك على عمارة بعد الخراب

وقال الوطواط الكتبى فى كتاب مباهج الفكر أن طول مسافته ثلاثة آلاف فرسخ ونيف وقيل أنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر وفى بلاد السودان شهرين وفى بلاد الاسلام شهراً قلت هذا القول موافق لما جزم به ابن زولاق فى تاريخه

وذكر صاحب درر التيجان أن من ابتدائه الى انتهائه اثنين وأربعين درجة وثلثى درجة كل درجة ستون ميلاً ، فيكون طوله ثمانية آلاف وستمائة وأربعة وعشرين ميلاً وثلثى ميل عَلَى الفصل والاستواء ، وله تعويجات شرقاً

وغربا فيطول ويزيد على ما ذكرناه . وقال صاحب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : « وبين طرفى النيل مما ثبت فى الكتب خمسة آلاف وستمائة ميل وثلاثون ميلاً »

وذكر صاحب خزانة التاريخ أن طوله أربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وسبعون ميلاً ، وعرضه فى بلاد الحبشة والنوبة ثلاثة أميال فما دونها ، وعرضه ببلد مصر ثلثا ميل ليس يشبهه نهر من الأنهار . وفى تاريخ ابن زولاق ليس فى الدنيا نهر أطول مدى من النيل يسير مسيرة شهر فى بلاد الاسلام وشهرين فى بلاد النوبة وأربعة أشهر فى الخراب حيث لا عمارة الى أن يخرج من جبال القمر خلف خط الاستواء ، قلت ما حكاه صاحب الأصل فى تاريخ بن زولاق ادعى أبو قبيل الاجماع عليه ولفظه كما حكاه بن عماد فى جزئه المذكور ما نصه . وأجمع أهل العلم على انه ليس فى الدنيا نهر أطول مدى من النيل يسير مسيرة شهر فى الاسلام الى آخر ما تقدم ذكره وزاد فقال وليس فى الدنيا نهر يصب فى بحر الروم والصين غير نيل مصر انتهى والله أعلم »

أسماء النيل

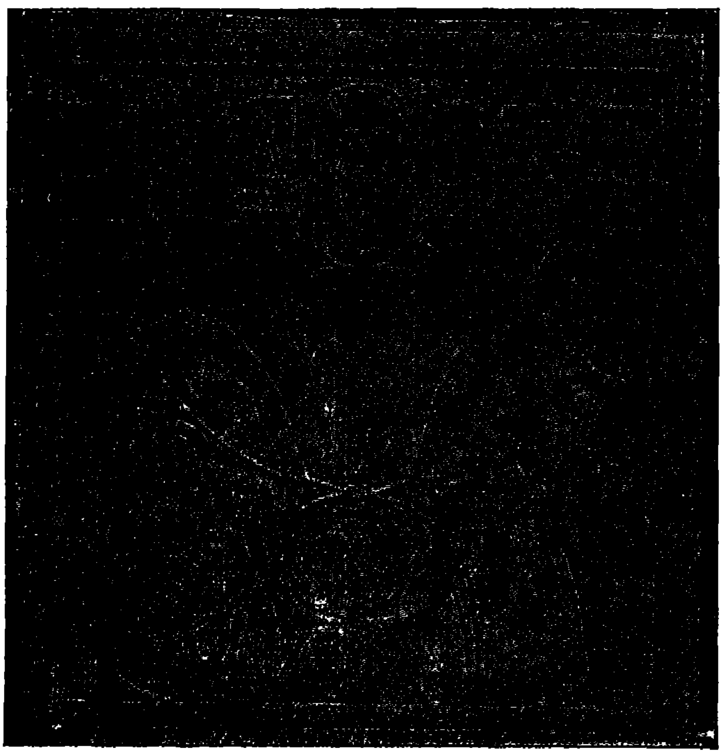
من النصوص المصرية القديمة

كان قدماء المصريين يعتقدون ان النيل الذى تروى منه الأقاليم القبلية نيلاً خاصاً ، واطلقوا عليه (حعب رسيت) ويقولون انه لولاه لما استطاع النيل المخصص لرى الوجه البحرى ايفاء الحاجة لأقاليمه ، وحددوا النيل القبلى (كاعتقادهم) بأنه يبتدئ من جزيرة أسوان ، والنيل الخاص بالوجه البحرى دعوه (حعب محيت) ، وقالوا ان ابتداءه من منطقة الدلتا المعروفة قديماً باسم

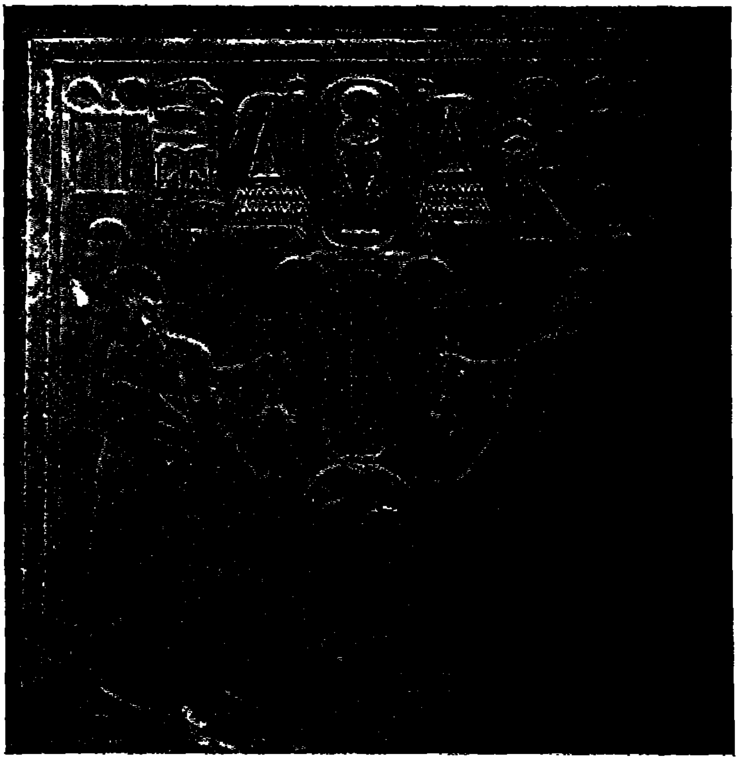
بابيلون التابعة لاقليم هليوبوليس وقد نقش فى معبد يلاق النص الآتى « ان نيل الوجه القبلى أبو الآلهة الخارج من مغارته (جزيرة أسوان) ونيل الوجه البحرى الخارج من خزانته »

ولما قدم لمصر هيردوت لمباحثه عن النيل ، وحادث فى شأنه الكهنة الصاويين حاولوا اقناعه بعقيدتهم هذه ، ولكن أظهرت المباحث الجغرافية والحديثة انها لا تطابق الصواب .

وكانوا يرسمون نيل الوجه البحرى على شكل رجل فى ريعان الشباب ، ضخم الجسم ثقيل الكتفين كبير الثديين ، متشح برداء عليه أثمار النيل فى بلاد الوجه القبلى ولونها أزرق ، ويرسمون تمثال النيل للوجه القبلى على شكل رجل متشح برداء فوقه أثمار النيل الممثلة ببلاد الوجه البحرى ولونها أحمر .



وكانوا يطلقون على النيل أسماء كثيرة ، جعلوا منها اسماً مقدساً له وهو حعبي ، ونقش على حجر كانوب المحفوظ الآن بالمتحف المصرى فى القاعة حرف T تحت رقم ٩٨٠ وتحته العبارة الآتية « ان النيل حعبي نقص نقصاً عظيماً فى عهد الملك بطليموس .



والعامة كانوا يطلقون عليه اسم آيور . وقال بروكش باشا فى قاموسه الجغرافى ان كلمة آيور هذه مشتقة من كلمة (اور) المنقوشة على مسلة اسكندر ذى القرنين ، وجاءت فى اللغة القبطية باللفظ ذاته (يور — Your) أى النهر . وترجمت التوراة فى عهد أحد الملوك البطالسة وذكر فى سفر الخروج اسم النيل بلفظ ايور الذى يشبه فى النطق الاسم المصرى القديم . وقد ورد اسم نيل الوجه البحرى بلفظ (وعر)

وقال بروكش باشا ان كلمة (وعر) معناها باللغة المصرية القديمة المياه الغزيرة في وقت الفيضان. وقال لباج رينوف انه ورد النيل باسم عرتى، وان هذا الاسم يشبه كثيراً الفعل (ار) الذى معناه باللغة المصرية القديمة صعد.

وبعضهم اعطى للنيل من الجانب الغربى للقاهرة اسم ايوما (أى اليم — البحر)، وورد هذا الاسم فى قصة شهيرة (تدعى قصة الأخوين) مكتوبة باللغة المصرية القديمة، وفيها كثيراً ما أطلق على النيل هذا الاسم (اسم البحر) حتى اليوم

واسمه الأصلى مجهول، وقيل انه مأخوذ من اللغة اليونانية التى نقلنها من الشعوب الأجنبية كالفنيقيين وقبائل ليبيا وأسيا الصغرى

ولما بطلت عبادة النيل زال اسمه المقدس (حعبى)، وأطلقوا عليه لفظ البحر أو النهر. وجاء فى قرار ممفيس المنقوش بالديموطيقية (لغة الشعب) ان النيل كان فيضانه منخفضاً فى السنة الثامنة من حكم الملك بطليموس أبيفان، وذكر فيه النيل بالديموطيقية بلفظ إل (اى النهر)

وجاء فى ورقة بردية تتضمن علوم المعبودين فتاح وتحوت تسمية النيل بهذا اللفظ أيضاً، وورد فى مسلة منقوشة بالخط الفارسى أن داريس أمر بحفر قناة من النيل وعبّر عن اسمه بالفارسية (P—ir—ăa) (ب — ا ر ع ا) فالباء أداة التعريف للمذكر المفرد بالهيروغليفية و (ار) يطابق (ال) بالديموطيقية (Il—ir) ومعناه النهر و (ع ا) ومعناه كبير أى النهر الكبير أى النيل ووردت الباء أداة للتعريف للمذكر المفرد فى كلمة يوم أى بحر فصارت بيوم، والباء تقلب فاء فصارت فيوم أى مدينة الفيوم ومعناها البحر. وكذلك التاء فانها أداة التعريف للمؤنث المفرد فى كلمة (مير) التى معناها فيضان النيل وبالقبطية ميرة فصارت بالعربية العامية (دميرة) أى فيضان النيل

وذكر فى قصة سَتَنَا المكتوبة بالديموطيقية اسم النيل (ن — إل) ومعناه النهر فالنون أداة التعريف للجمع المذكر «وأل) معناه النهر

ويلاحظ أن اسم النيل عند قدماء المصريين يدعى (ار) أو (ال)، واشتق منه الديموطيقى بلفظ (ال) وكذلك القبطية، ولكن هؤلاء استعملوا الكلمة الديموطيقية (ن — ال — و) فالنون أداة التعريف للجمع المذكر كما تقدم و (ال) معناه النهر و (و) علامة للجمع. ومن كلمة نيلو اشتقت الكلمة اليونانية (Nilos) أما الصاد فى (نيلوص) فيطابق الحرف السادس عشر من الأبجدية اليونانية

وليلاحظ القارئ النظرية الآتية القديمة العهد الغريبة فى كلمة نيلوص (Neilos) التى ربما كانت من اختراع اليونان أنفسهم وان عدد أيام السنة المصرية (٣٦٥)، ومن الغريب اذا حسبنا كل حرف من كلمة نيلوص بحساب الجمل اليونانى، صار مجموعها الكلى (٣٦٥) وهو مجموع أيام السنة المصرية واليك جدولاً يتضمن هذا الحساب:

حروف Neilos نيلوص حسب الأبجدية اليونانية

	عدد الجمل		
N	٥٠		
E	٥	٣١٥	٣٦٥ — ٥٠ الباقى
T	١٠	٣١٠	٣١٥ — ٥ «
L	٣٠	٣٠٠	٣١٠ — ١٠ «
O	٧٠	٢٧٠	٣٠٠ — ٣٠ «
S	٢٠٠	٢٠٠	٢٧٠ — ٧٠ «
	٣٦٥ المجموع		

أن مجموع الأعداد المذكورة ٣٦٥ (٥ + ٦ + ٣ = ١٤)، وهذا العدد هو الحرف الرابع عشر من الأبجدية أى النون والعدد الجملى ٥٠ كما تقدم وهنا للنقد مجال إذ من المبادىء المتبعة أن الكلمة تشتق من مأخذ

واحد فكيف يكون اسم نيلوص مأخوذا من اللغة السامية العبرية (نهر) ومن اللغة المصرية القديمة (ن — ال — و) أو من اسم مخترع مركب من الأعداد ٣٦٥ . ومن السهل معرفة نتيجة شيء واحد وان كانت أسبابه كثيرة، فمن الممكن أن يكون اليونان قد سمعوا من الساميين لفظة نهر عن النيل، وتعلموا من المصريين أن فروع النيل التى تمر بالدلتا تسمى (ن — ال — و) أى الأنهر، ولكن من الصعب فهم أسباب كلمة نيلوص وهو ٣٦٥ الموافق تماماً لعدد أيام السنة المصرية

وقيل إن لفظ النيل كلمة عربية مشتقة من نال فان النيل نوال من السماء وان الهنود نقلوا اسم النيل الى بلادهم ومنها النيلة (الصبغة) كما نقله قبلهم العجم والعرب الى لغاتهم

وجاء فى تأليف الفيلسوف أراتوستين[١] (Aratosthène) أن أحد الملوك كان يسمى نيلوص ومن اسمه اخذ اسم النيل

وقال بلين المؤرخ الرومانى إن النيـل يخرج من بحيرة تدعى نيلوص واعطى هذا الاسم للنيل نفسه

فيتضح مما تقدم أن كلمة نيل لم تجتمع آراء المؤرخين على حقيقة مأخذها بل تشعبت الآراء كما علمت، والذى أراه أن الأقرب هو أن النيل أخذ من لفظة نيلوص اليونانية المأخوذة من الكلمة الديموطيقية (ن — ال — و) أى الأنهر كما تقدم

---

(١) فيلسوف شهير من مدرسة الاسكندرية القديمة . ولد فى سيرين (Cyrène) سنة ٢٧٦ ق . م .

سيحور

لم يكن سيحور اسماً للنيل كله عنـد قدماء المصريين كأتور وغيره ، بل كان اسماً لجزء منه وهو الجزء الواقع فى الاقليم الرابع عشر بالوجه البحرى الذى كانت قاعدته مدينة ذور كما يستفاد ذلك مما وجد منقوشاً على جدران معبد ادفو باللغة المصرية القديمة ؛ فقد نصت هذه النقوش على أن هذا الاسم (شيحور) كان علماً على جـزء من أجزاء النيل فى الاقليم الرابع عشر بالوجه البحرى ، ثم توسعوا فى استعماله ، فأطلقوه على النيل كله من باب اطلاق الجزء على الـكل كما يسميه علماء البلاغة (بالمجاز المرسل) ولهـذا الاطلاق نظائر فى جميع اللغات

ويؤيد هذا ان شيحور (بالشين المعجمة) كلمة مصرية قديمة مركبة من كلمتين الأولى (شى) ومعناها بحيرة والثانية (حور) ومعناها المعبود وكان يطلق عليه حور أو هور أو حورس أو هورس وهو إلّه هـذا الاقليم الرابع عشر بالوجه البحرى المذكور وكان رمزاً للشمس التى هى أكبر الآلهة عندهم فمعنى شيحور اذن بحيرة حور أى بحيرة الإلّه المسمى بهذا الاسم

ومما ورد فى رواية مصرية قديمة « أن النيل يبتدىء من جزيرة اسوان ويمتد الى شيحور فيؤخذ من ذلك أن شيحور هو الجزء الأخير من النيل ، ويمكننا أن نقول أيضاً أن شيحور آخر الحدود المصرية القديمة

ثم لما أتى الاسرائيليون أرض مصر فى عهد الأسرة التاسعة عشر ، واختلطوا بالمصريين سرت اليهم كلمات كثيرة من اللغـة المصرية القديمة وامتزجت بلغتهم العبرية ، ولذلك وردت بمعنى أسود واطلقوها على النيل

للدلالة على مياهه المكدرة (بفتح الدال المشددة) وطميه « الطينة السوداء » الذى يتركه وقت فيضانه

وجاءت أيضاً كلمة شيحور فى التوراة فى سفرى ارميا واشعيا ويفهم من كلامهما أن المراد بها النيل أو جزء منه

وقد نطق بها « الزبور » فانه جاء فيه أنه لما أراد سيدنا داود نقل تابوت العهد الى مدينة أورشليم جمع الاسرائيليين المقيمين فى البلاد من شيحور الواقعة فى الجنوب حتى (أماث) الواقعة فى الشمال . ويفهم من عبارة الزبور أن شيحور كانت الحد الفاصل بين الأراضى المصرية وأملاك بنى اسرائيل

وفى سنة ٢٨٣ ق . م . ترجمت التوراة من العبرية الى اليونانية بأمر بطليموس فيلادلف وسميت الترجمة السبعينية لأن الذين ترجموه كانوا سبعين حبراً من أحبار بنى اسرائيل ، ثم ترجمت بعدئذ الى اللاتينية ودعيت «فلجات» أى العامة (Vulgate) فترجمت لفظة شيحور بلفظ النيل . إذن فهم الأقدمون أن كلمة شيحور هى نفس كلمة النيل

⁂

ولا بأس من أن نثبت هنا خلاصة بحث جديد هو آخر ما اطلعنا عليه فى نوعه للعلامة الجليل المرحوم احمد باشا كمال أمين المتحف المصرى سابقاً فى رسالة أفردها بالبحث عن أسماء النيل واشتقاق التسمية فقال :

الى الآن لم يهتد أحد من الأثريين الى اسم النيل بالتحقيق ، بل وجدوه فى العربية واليونانية فقال إنه مأخوذ من اللغة الفنيقية أو الأشورية الى نحو ذلك ، ووقف بحثهم الى هذا الحد فخرجه (جروف) بطريقة لا تنطبق على الحقيقة لما فيها من التكلف . ولكن هناك لفظ مصرى دال على النيل لأنه ذكر فى الجدول الشامل لأسماء هذا النهر المبارك المنقوش على الآثار ، ونقله

بروكش فى قاموسه الجغرافى (فراجعه فى الصحيفة ١٤٠٨) وهذا اللفظ هو (ننو ونينو) ورد أيضاً فى قاموس اللغة للأثرى المذكور (جزء ٣ الصحيفة ٧٧٩ وجزء ٤ الصحيفة ٦٧٨) وذكر كثيراً فى النصوص المصرية ، ونونه الأخيرة تقلب فى العربية لاماً إذا اريد مقارنته بالنيل كما سترى فى الأسئلة الآتية من انقلاب النون المصرية الى اللام فى العربية

ن : حرف نفى فى المصرية ويقابلها فى العربية والعبرية لا

نن : معناه الليل بقلب النونين لامين (وخلفه اشارة السماء مزينة بالنجوم)

نن . ننو : الاء اللائى اسم اشارة فى اللغتين

نز : لوز شجر معروف

نت : التى ، الذى (لأن التاء تقلب ذالاً) اسم موصول فى اللغتين

نبن . ننبن : لبنى وهى شجرة الميعة أى المصطكى

نخب : لقب والقاب الخ

اذا علمنا ذلك جاز لنا أن نقول إن (ننو) أو (نينو) هو النيل لأن هذا التخريج لا يخرج الكلمة عن المعنى الذى وردت بها فى اللغة المصرية ، اذ قد ذكر فى ورقة هريس (Harris I.,18,0) نص معناه : قربان الأعياد الكبيرة لمبدء (ننو) أى القرابين التى كانت تقدم للنيل فى مبدأ الفيضان ، فى نقوش دندرة عبارة معناها (Demt Hist. Ins. 29) دمهم مثل (ننو) أى مثل النيل وجاء أيضاً فى صحيفة ٢٥٦ من قاموس بروكش الجغرافى هذا النص : جبلا (ننو) أى الجبلين المحيطين بالنيل عند الشلال الأول — (وننو) تطلق أيضاً فى اللغة على جدول القسم العاشر فى الوجه البحرى (راجع كتاب الجغرافية بروكش بصحيفة ١٥ و ٢٥٢ والجزء الثالث منه الصحيفة ٢٩)

أما اسم النيل المقدس فهو (حعب) و (حعبي) والباء فى المصرية تأتى لتضعيف الحرف الأخير

واعلم أن (الحاء) و (النون) و (الزاء) تسقط فى بعض الكلمات المصرية وهذا أمر معلوم عند الاثريين فمثلاً كلمة (أمن حتب) اسم من اسماء ملوك مصر ذكر فى اليونانية باسم (امنوفيس) فان فاء الكلمة تحذف منهُ فى أول الى العربية فهو يقابل طاب يطيب طيبة والصفة منه طيب وطيبة الخ

فكلمة (حعب) تقابل إذن فى العربية «عب» (البحر عباباً : ارتفع وكثر موجه) وعبت : ميـاه متفرقة (وعباب) معظم السيل وارتفاعه وكثرته وقيل موجه

واليعبوب (قال أهل اللغة إن الياء فيه زائدة) النهر الشديد الجريان والجدول الكثير الماء (فحعب) أى (اليعبوب) اسم متداول كثيراً فى اللغة وذكر فى مدحة النيـل التى كتبها ماسبرو وترجمها فى كتاب قصص العوام المصرية واليك مطلع هذه المدحة عن ترجمتى لا ترجمة ماسبرو

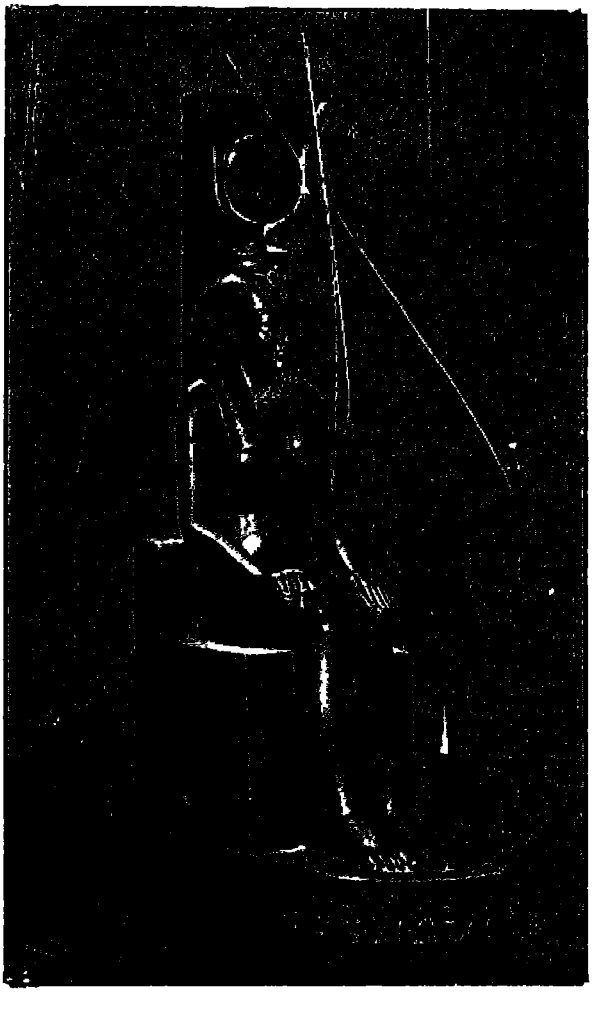
تعظمت أيها اليعبوب تنزهت أيها اليعبوب (حرف النداء محذوف كما يأتى ذلك فى العربية) البارز فى هذه الأرض السائر لعيشة مصر مسيرك كمين ليلاً ونهاراً مسيرك ممدوح لأنه يروى الحقول التى أوجدتها الشمس ليعيش جميع الحيوانات ويروى الصحراء البعيدة عن الماء . نداه هو السماء (أى مياهه من المطر لأن هوى السماء هو ما يهوى منها فى الماء أى المطر) فالأرض تروم وتتقرب بالحب (أى تجود بالمحصول) الخ

أما أسماء النيل الواردة فى الجدول المنقوش على الآثار فهى اثنان وخمسون اسماً استعملت اما بوجه الحقيقة أو بوجه المجاز لعلاقات معلومة عند أهل اللغة قديماً

فيضان النيل وأسبابه

عند قدماء المصريين

كان فيضان النيل الدورى أمراً هاماً لسعادة مصر ، وأيقظ أنظار أولى الأمر اليه فجدوا فى وسائل تحسينه ، وإن هذا الفيضان الطبيعى الذى يفسره العلم الحديث بكل سهولة ، كان فى عقيدة قدماء المصريين دليلاً ساطعاً على أنه لايتم إلاَّ بمعونة وقدرة إلهية .



المعبودة إزيس والاصل بالمتحف المصرى

قال بوزانياس المؤرخ اليونانى الجغرافى المولود فى القرن الثانى ق . م ، إن المصريين اعتبروا النيل فى بدء فيضانه مجموعة من دموع المعبودة إزيس التى تبكى زوجها أزوريس . وقال لاباج رينوف يحتمل أن يكون هذا تقليداً قديماً ، لأن إزيس وأختها نفتيس تسميان فى كتاب الموتى بالنادبتين . وجاء فى نصوص أخرى كثيرة أن مجرى النيل منسوب لإزيس أو لمعبود آخر مثل سوتيس الشبيه بإزيس

ومن الغريب ان جميع سكان مصر لا يزالون على اعتقادهم القديم ، بأن يوم ١١ من شهر بؤونة الموافق ١٧ يونيو تنزل فيه نقطة ، فتسبب فيضان النيل ولا زالت تعرف إلى الآن بليلة النقطة .

والجدير بالذكر هو معرفة أسباب الفيضان الواقع بأمر إلهى كما يعتقدون



المعبودة نفتيس
والاصل بالمتحف المصرى

ينتظر المصريون أشهر الفيضان بلهف وشغف ، فان تأخر قليلاً بسبب غير متوقع ، فزعت القلوب وخافوا من الدمار ، وتكسد الأعمال ، وتنتشر الأوبئة ، وتفتك بالناس فتكاً ذريعاً ، ويعقب ذلك اضطراب فى الأحوال ، وتنضب ينابيع الثروة ، وتتوالى العداوات والمشاحنات بين الناس ، وقد يستبيحون الاعتداء على بعضهم . وحينما يأتى الفيضان ، تسكن تلك المخاوف وترتفع الشرور ، ويستقبل الناس أسباب سعادتهم ، ووسائل رزقهم بالنشاط والبشاشة ، فيقبلون على المستلزمات الزراعية ، ويعم الفرح القلوب الى درجة تقل معها نسبة الوفيات فى

البلاد عن اعتيادها فى الأيام الأخرى ، وتقام للفيضان مظاهر الاحتفاء كأكبر الأعياد . ويظهر أن الفيضان يقترن بزمن ظهور نجمة الشعرى المعروفة بالشعرى اليمانية فى السماء . وقد جاء فى نقوش معبد دندرة أن سوتيس الاله يجلب الفيضان ، وإنه يشبه إزيس أم حورس التى تفيض من دموعها ماء النيل . وكان بمدينة أسوان معبد خاص لعبادة إزيس سوتيس احتراماً لذلك

ووجد فى بعض نصوص مصرية قديمة ان النيل يبتدئ فيضانه فى أول السنة المصرية ، ويعرف بدؤه بظهور النجمة سوتيس فى فصل الصيف فى السنة المصرية القديمة .

وورد فى ورقة هريس السحرية البردية أن ظهور النجمة المذكورة يوافق ابتداء الفيضان ، واتفق جميع المؤرخين على ذلك . وقال هيردوت وديودور الصقلى وبلين ان النيل يبتدئ فى زمن انقلاب الشمس فى الصيف

واستدام جهل قدماء المصريين بأسباب الفيضان مع اعتقادهم بأنه من دموع إزيس ، وظنوه ناشئاً عن الرياح الشمالية . ولكن ديودور الصقلى خالفهم فى ذلك ، وأبدى أن أمطاراً كثيرة تنزل فى كل السنين ابتداء من الصيف حتى يتعادل الليل والنهار فى فصل الخريف . ومن المعقول جداً أن ينخفض النيل فى الشتاء ويزداد فى الصيف من تهاطل الأمطار التى تهبط عليه ، فهى التى تأتى دائمًا الى مصر من أثيوبيا ، فتملأ فى الصيف مجرى النهر وهذه النظرية صحيحه ، وهى أصدق المعلومات عن السبب الوحيد فى فيضان النيل الذى هو مصدر الحياة لمصر وقاطنيها .

تتراوح مدة الفيضان بين تسعين يوماً أو مائة (على رأى قدماء المصريين والأقباط) . ويبتدئ الفيض رويداً الى يوم ٢٠ سبتمبر ، وهو أقصى مدته ، وتتغير مياه النيل أثناء زيادته ، فتكون خضراء فى الأوائل حينما تقذف الزيادة

من مجاريها المياه الراكدة فى مستنقعات بحر الغزال ونحوه ، ثم تصير حمراء قاتمة مغبرة حينما تنزل من سطوح جبال الحبشة الرمضاء ، ومنها تحدر الى النيل الأخضر والنيل الأحمر اللذين أشبها ساكنى تلك الجهات المجاورة . وهذه التغييرات لم تمنع ماء النيل من صلاحيته للشرب . وقد جاء فى أمثال العرب (على سبيل المبالغة) ان من شرب من ماء النيل مرة يشتاق أن يشرب منه أبداً . وبالغوا من قديم فى شهرته وخواصه ، حتى زعموا أنه يبعث الأموات فى الدار الآخرة . وذكر فى كتاب الموتى أن من اكبر مشتهيات الميت الشرب من المياه الباردة الآتية من نهر الجنة الذى كان يشبه النيل

واعتاد قدماء المصريين كما اعتاد ابناء هذا العصر اعتبار النيل المورد الأول لحياتهم وأرزاقهم ، فيحتفلون بالفيضان ومستوى الزيادة احتفالات سنوية . فإذا تأخر فيضانه امتلأت المعابد بمن يؤدون الصلوات والتضرع ، ويقدمون الضحايا ابتهالاً للآلهة فى أن يجود النيل عليهم بفيضه المعتاد . فاذا أبطأ ولم يستجب دعاؤهم ، توجهوا الى فرعون ليضرع معهم فى طلب الزيادة ، فيسمع النيل أمر أبيه فيأتى فتعم الأفراح ويأخذ القوم فى الاطمئنان على معايشهم ورخائهم .

النصوص المصرية القديمة الخاصة بالفيضان قليلة وما ورد منها لم يؤيد قصة سيدنا يوسف عليه السلام

وقد ورد فى شاهد حجرى ترجمه بروكش باشا انه وقعت بمصر مجاعة دامت سبع سنين ، ولم يمكن الجزم بأنها هى السبع سنوات الواردة فى نص التوراة أو غيرها واليك ترجمتها :

يقول الملك لرجال بلاطه : « أنا الملك حزين على عرشى ، وقلبى مفعم بالكآبة لتأخر النيل عن فيضه المعتاد سبع سنوات ، فأصبحت ثمرات

الأرض نادرة ، وجفت الخضرة ، واستحال كل شىء على وجه الأرض . انى أفكر كثيراً فيما مضى ، وأتضرع معكم الى إمْحُتِبْ بن فتاح الذاهب الى منبع النيل ليمنحنا جميعاً الشفاعة والإغاثة بفيضه سريعاً »

وورد فى حجر كانوب المحفوظ بالمتحف المصرى تحت رقم ٩٨٠ بقاعة حرف T بالطبقة السفلى أنه فى عهـد الملك بطليموس افرجت الأول سنة ٢٣٨ ق . م اشتدّ انخفاض النيل وحدثت بذلك الأهوال والمجاعة

وقال الفيلسوف سنيك : إن النيل لم يفض سنتين ، أولاهما فى السنة العاشرة فى حكم الملكة كليوبطرة . ويؤكد لنا كليماك أن النيل سبق أن تخلف فيضانه عن عادته تسع سنين لما قتل بطليموس بومباوس الرومانى الشهير (Pompée) ، حتى قال رجاله إن النيل لم يفض غضباً لارتكاب هذه الجناية فى أرضه

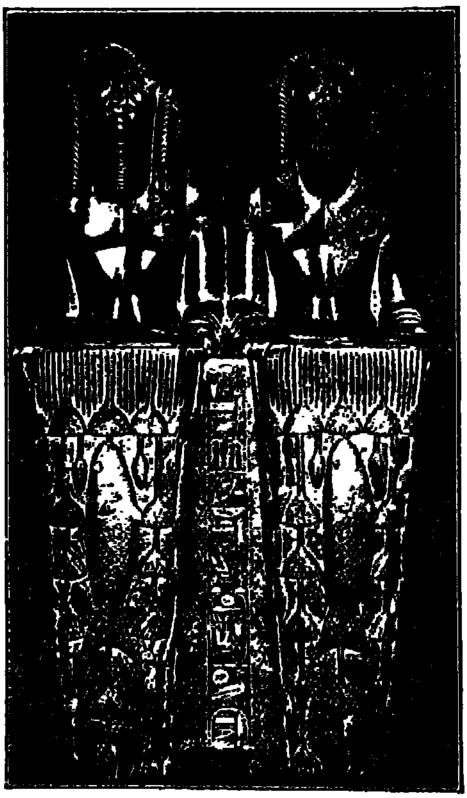
وقد يتجاوز النيل فى زيادته الحد المعتاد ، وأحياناً تبلغ الزيادة الى درجة الخطر فتكون البلاد تحت نطاق الحصار ، وتتهدم مبانيها وتفسد مدخراتها الزراعية ، وتتعطل المواصلات ، ويلجأ المستطيعون الى النجاة بأرواحهم آبقين إلى الأراضى العالية أو حواجز الجبال ان كانوا قريبين منها

وفى أنشودة النيل عن تأخره بعض السنين ، ما يثبت أن تأخير فيضانه كما يضر بالآدمى والحاصلات الزراعية المدّخرة ، يؤذى البهائم أيضاً ، لأنها لا تجد ما تعودت الاقتيات به من الحشائش ونحوها التى كانت تجوب الأودية فى طلبها قبل أن يغمرها الفيضان ويقطع عليها السبيل

ووجد باللغة المصرية القديمة فى جدران فناء معبد أمِنْحُتِبْ الثالث بالأقصر أنه حصل فيضان زائد فى عهد الأسرة ٢٢ ، فامتنع الناس عن حفلات المعبد ، وخربت الأرض وما فيها ، ولم توقفنا الآثار على شىء من هذا القبيل

فى العصر الفرعونى ، ولم يذكر لنا شيئاً مؤرخو اليونان والرومان ، بل أجمعوا على مدح جمال مصر فى أزمنـة فيضانها المعتادة ، وان به يتغير منظر البلاد ويتلطف ميزان الحرارة فى الجو

وقال سنيك الفيلسوف : « ما أبدع منظر مصر وقت فيضان نيلها على الأودية والحقول » وقال هيردوت : « إن مصر تصير بحراً فى ذاك الوقت وأن النيل اذا بلغ ارتفاعه ١٥ أو ١٦ ذراعاً اعتبر الفيضان مباركاً » وأيدت هذه الأقوال المعلومات المستفادة من الأوراق البردية ، والنقوش الموجودة على الحجارة الأثرية



نيل مدينة تانيس

تمثالان يمثلان نيل الوجه القبلى ونيل الوجه البحرى وهما يحملان أثمار النيل من الاسماك والطيور المائية وزهرة اللوطس ويقدماها هدية لملك مصر .
والاصل بالمتحف المصرى بالطبقة السفلى بالطرقة J رقم ٥٠٨

ومتى انتهى الفيضان ، أو كما يعبر قدماء المصريين فى لغتهم لما تخرج الأرض من الماء ، يباشر الفلاح الزراعة ، فتغطى الخضرة وجه الأرض ، وتصبح على سعتها بساطاً سندسياً يبهر النواظر ويروق الألباب

واذا بلغت زيادة النيل أكثر من ذلك ، تعطلت مواعيد الزراعة ، وإلى هذا أشار ماريت باشا فى قوله : إن مصر كما تهتز بالجزع إذا تأخر الفيضان فكذلك يعمها الضرر إذا كان فيضانه زائداً عن الحالة المألوفة . ولهذا فحياتها تتوقف على اعتداله فى مجيئه بآونة الحاجة اليه وعدم زيادة فيضه عن قدر هذه الحاجة .

ورقة انسطاسى البردية

أو

سفر ابوور المتنبى المصرى القديم

منذ ٤٠٠٠ سنة

بلغت العناية بأمر النيل فى مصر اجتراء كثير من المتصدرين للبحث والعلوم على تنبؤات كثيرة فيما يختص بزيادته ونقصانه وما يعترى الأمة فى أدوار القحط من الانزعاج والألم والانكماش. وكان من تصدر عنهم هذه التنبؤات يجهرون بها بين يدى الفراعنة فى وقتهم، ويتلقاها الناس بتشوق شديد، وحرص مستمر لمقارنة الحوادث وتطبيقها عند وقوع شىء منها بما يكون منافياً أو مؤيداً لهذه الأقاويل. ومن ذلك ورقة انسطاسى البردية التى توجد فى متحف لندن تحت رقم ٣٤٤، اشتهرت بورقة انسطاسى لأنه هو الذى اكتشفها فى مدينة ممفيس بالقرب من سقارة، وابتاعها منه متحف لندن سنة ١٨٢٨ مكتوبة بالهيراطيقية من وجهيها ويرجع عهدها الى عهد الأسرة ١٢ أو ١٩

ومما اشتملت عليه قول ذلك المتنبى أنه سيأتى على مصر دور تقلّ فيه مياه النيل، ويتبع ذلك كساد الأحوال، وتنتشر الأوبئة وحوادث الثورات واراقة الدماء، ويتغلب الصعاليك على الأعاظم، وتتعدد الحروب الداخلية، ويتوالى الانقلاب، وتسود بعض العناصر المنحطة، وتنفرد بالسيطرة،

ونهب الأموال من ساداتها ، وتكثر نساءهم من التجمل بنفائس العقود والقلائد ، وتحل التعاسة ببعض الطبقات الراقية حتى يعوذها طلب القوت ، وتكثر الدخلاء حتى فى العلماء ، وتُنتَهَكُ أماكن العبادة ، وتعطل الشعائر . فالويل كل الويل لمن يحمل فى عصره أقل امكان لوقوع أقل شيء من هذه الشرور

ثم تنتهى تلك الدورة المؤلمة ، ويسود السلام ، ويعود النيل الى فيضه المعتاد ، وتسترد الأرض بهجتها ، وتعود الى النفوس مكانتها على يد من يسخرهم الله لسعادة الانسان »

ومن هذه الأساطير وأمثالها يعلم أن عظماء الفراعنة وأيمة الباحثين كانوا يعلقون كل شيء فى مستقبل البلاد على فيض النيل وانخفاضه ، ويرتبون نتائج الخير على بركات الفيضان ، ويتشاءمون بكل حوادث الشر فى السنوات التى يكون فيض النيل فيها بطيئاً أو منخفضاً ، ولا ننكر أن حياة مصر قديماً وحديثاً تتفاوت فى الرخاء والنعم بقدر ما يغمرها به نيلها المبارك أدامه الله لها مستفيضاً بالخيرات والسعادة ، ووفق رجالها العاملين الى الصالح العام فى كل أدوارهم الكريمة

أعمال ملوك الأسرة (١٢) فى النيل

اشترك الفراعنة مع الشعب فى عقائده نحو النيل ، وفى الاهتمام بكل شؤونه كواجب فطرى تألفوه بالتوارث ، ثم رأى الممتازون منهم بقوة الفطنة وحب الاستطلاع والتشوق فى زيادة المزايا العمرانية التوسع فى المباحث ، فابتدأوا بانتداب المتضلعين فى العلوم الفنية ، فأرسل بعضهم مهندسين للشلالات لحصر الارتفاعات التى وصل اليها النيل فى مدد الفيضان ، ليقيموا

بنسبتها الجسور ، ويشيدوا الخزانات . وباتمام هذه الاصلاحات النظامية سميت مصر قديماً الأرض المرواة أو المتصلبة بالقنوات ، أو الأرض السوداء ولا غرو فى ذلك لأن مصر أرض زراعيــة ، والزراعة هى الوسيلة للثروة ، وحياة الزراعة تستلزم العناية بالمياه فى الايراد والصرف كيلا يضيع جزء منها فى أراض مهملة ، ولا تحرم الأراضى الزراعية الخصبة من كفاية المياه لريها وانماء مزارعها . وعرّف قدماء المصريين ان مياه النيل المتدفقة بالفيضان ، تنقل كل عام كميات من الطمى النقى الذى يمنح الأرض زيادة فى الخصوبة وجودة فى الزراعة ، فاجتهدوا فى توصيل هذه المياه بمحتوياتها الى الجهات القاصية ، لتأخذ حظها مما تجود عليها به طبيعة الفيض . فالعناية بموازنة المياه فى الاستجلاب والصرف ليست من الوسائل الحديثة أو من مبتكرات الأجيال الأخيرة كما يدعى الزاعمون ، بل إنها من مجهودات الأفكار المتوالية فى عهد الفراعنة ، فامتازت الأرض بكثرة الانبات وتعدد المحاصيل ووفرة الثمرات منها باسباب ترجع إلى توفر المياه ، والى فاعلية الشمس وحرارتها ، واعتدال العنصر الأرضى ، حتى أن الحبة الواحدة قد تبلغ فى الانبات الى مائة حبة ، فكانت مصر أمام بقية الممالك أشبه بخزائن حاصلات لكثير من الممالك ، وكانت تعد كمستودع الأرزاق للعالم الرومانى مثل بلاد توميدى

وقد جاء فى التوراة أن ابانا اسحق أرسل ابنه لمدينة ممفيس لاستجلاب القمح . وكان الفيضان الدورى يخفف عن الفلاح معالجة أرضه فتجود عليه بالحبوب والحاصلات الوافرة ، وهو لا يتكبد الا تخطيطاً بسيطاً فى مواسم التقاوى وانتقاء أنواعها ليجنى من حسن نقاوتها وتوفر مياه الرى لديه خيرات وافرة .

ووضعوا فى تلك العصور الماضية اللوائح والقوانين المشجعة على التحسين الزراعى ، ومكافأة المجتهدين مكافأة مالية ليقتدى بهم الغير . وكانت الأراضى تقسم بين المزارعين بنسبة أفراد العائلات وخبرتهم الزراعية اذا كانت مساحة الأرض على سعة تمكن من كل ذلك ، ومدّ الجداول وانشاء المجارى ونحوها رغبة فى تعميم الفائدة وتسهيلاً على الزراع فيما تشتد حاجتهم اليه

وكان كل عصر من الفراعنة يفتخر بما أحدثه من أنواع التحسينات ، ولا يصرفه الاهتمام بما أحدثه عن دوام العناية بما استجيد منها فى عهد أسلافه رغبة فى تخليد المنفعة لذويها ، وابقاء الذكر الحسن لمن أدّى للبلاد عملاً مشكوراً ، لأن الجسور ونحوها ان لم يتعهدها ولاة الأمور بالعناية والاصلاح والقنوات والمجارى ، وان لم يتخذ نحوها الترميم والتطهير كل سنة فى الوقت المناسب له يترتب على تركها انحطاط درجة الأرض من الخصوبة الى الجدب ، وتحول حالة الملاك من السعادة الى الشقاء

وقد عثرنا على نص رقيم حكومىّ صدر فى عهد الملك سنوسرت الثالث يأمر بترميم قناة وهذا نصه : (دلالة على ما سبقت أشارتنا اليه) : « فى السنة الثانية من حكم ملك الوجهين البحرى والقبلى الملك سنوسرت ، الحى الارادة الدائم الذكر ، أمر بانشاء قناة جديدة طولها مائة وخمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً وعمقها خمسة عشر ذراعاً »

ووجد منقوشاً على شاهد أقيم للملك تحوتمس الأول : « انه فى السنة الثالثة من حكمه ، وفى اليوم ٢٢ من الشهر الأول من فصل الحصاد ، أمر الملك المعظم بحفر هذه القناة ، شكراً لمعونة الرب الأعلا ، وإسدائه بالنعمة على شعبه بمناسبة فوزه بالنصر والفوز على بلاد كوش » .

وفى عهد تحوتمس الثالث أنشئت قناة أخرى بعد ما أن ملأتها الحجارة . وفى هـذا المرسوم نص بالزام من يزاولون مهنة الصيد فى جزيرة أسوان بتطهيرها سنويا ، لأنهم هم الذين يترددم عليها لأعمال الصيد بالزوارق وغيرها يتسببون فى انهيار ميول الجسور تساقط الحجارة حولها حسب مستلزمات مهنتهم ، فمن العدل انهم كما يغنمون الأرباح بالصيد منها يتكبدون بعض الاجراآت الواجبة لتطهيرها وصيانتها حتى لا تنطمس مجاريها ولا يتعطل الانتفاع بها

وقد وضعت فى عهدهم القوانين الشديدة بالعقوبات الرادعة ، والجزاآت الزاجرة لمنع الناس عن إحداث أى ضرر بمجارى المياه وطرق المواصلات ، وعدم مس الأعمال الزراعية والمحاصيل أيضاً بأى ضرر أو تلف ، لأنها فى واقع الأمر أعدت لمنفعة المجتمع العمرانى . وليس قيام الأفراد بالخدمة والزراعة فيما يكون تحت ملكيتهم إلاّ من أنواع التعاون الضمنى ، لأن كل فرد يؤدى خدمة شخصية ترتبط بالمنافع العامة يعتبر خادماً للمجتمع وإن لم يقصد هو فى عمله هذه الملاحظة

وقد وجد فى نصوص الكتاب المقدس فى كتاب الموتى ما يؤيد هذا الاهتمام الحكومى الذى تتناقله الأجيال : « انى لم أقطع قناة فى ممرها ، ولم أخالف نظام الرى ، ولم أتلف الأراضى الزراعية »

وقد وجدت نقوش فى قبور الأمراء بأسيوط تدل على الأعمال التى تمت لإصلاحات النيل فى عهد الأسرة الهراقلوبولتية . وفى هذه النقوش إشارة الى أن الملك خيتى الأول يفتخر باستيلائه على المياه وحسن التصرف فيها كيفما شاء ولم تكن فى الوجه القبلى إلاّ أراض منحطة ، فاهتم بحفر قناة كبيرة فى الأراضى الشراقى ، وأقام لها أبواباً ، وغيّر مجرى المياه القبلية ، فوصلت إلى حدّ لم تبلغه

المياه قبلها، ومكّن حدود القناة، فارتوت منها بلاد كثيرة، وجعلت الهضاب المرتفعة بحيرات، وصار النيل يغمر الجزائر، وأصبحت الأراضي الجدباء ذات خصب ورغد، وكل الأراضي التي كانت في الماضي محرومة من الري النيلي، فأهلها ينسبون الفضل في سعادة حالهم وصفاء عيشهم الى الملك سيتي الأول الذي حفر قناة تمّ بها الاتصال من فرع النيل الثاني الى بوباستيس بالبحيرات المرة ووادي طيبة . وأهم القنوات التي تمر بقرب قبطوس ذكرت في قصة ساتني خماييس

وكان البحر اليوسفي في الحقيقة فرعاً للنيل في الجهة الغربية يبتدئ من أسيوط وينتهي الى الدلتا

وقد أتمّ الملك نخاو الثاني ابن الملك بسامتيك مشروعات كثيرة في الري، ووضع مشروعاً جليلاً لانشاء قناة تصل البحرين، ولكن هذا المشروع لم يتم في أيامه والذي وفق لانجازه هو الملك داريس الفارسي، وقد نقش اسمه في شاهد شالوف بالفارسية ونصه كالآتي « أمرت بحفر هذه القناة تبتدئ بالنيل من مصر الى البحر الأحمر

وذكر هيردوت ان الفمين البولبستيكي والبيكوليكي لم يكونا طبيعيين، ولا بد أن تكون يد الانسان العاملة في العمران قد خطتهما، فان الفراعنة أنشأوا قنوات كثيرة للبلاد ليسهل على أهلها الانتفاع بالمياه الوافرة لريّ الأراضي وكافة الاحتياجات البشرية . واقتفى اليونان والرومان آثار الفراعنة في إصلاحات الري، وكانوا يعتنون بتطهير الترع من رواسب الرمال والحجارة . وأول من افترض على الأهالي القيام بهذه التطهيرات هو اكتاف

أغسطت (Octave Auguste) ، وكان يراعى تقسيم الأعمال بينهم بمراعاة قرب أهالى كل جهة من القسم الذى يكلفون بتطهيره .

وفى الأوراق البردية ومن بينها ورقتا باريز وبرلين ان الملوك بطليموس فيلادلف وافرجت الثانى ابيفان وتراجان وجستنيان كانوا يعتنون سنويًّا بتطهير الترع وتقوية الجسور ، ويكلفون مراقبين فنيين بدوام المرور عليها ، وإيضاح ما يحتاج علاجًا ، فيبادر لاتخاذه ولو قبل المواعيد المعتادة فى الميزانيات السنوية وجداولها

وروى أنه فى السنة الثانية (سنة ١٩٨ ق . م) من حكم الملك افرجت الثانى بلغت شدة الفيضان درجة قصوى ، أغرقت كثيراً من الأودية والصحارى ، فقام الملك بنفسه للاشراف على الأعمال المتخذة لتخفيف المضار والعناية بتقوية جسور النيل وسياج الترع وتجديد المصارف بين للسافات ، حتى أوقف طغيان المياه ، واطمأن باله بنجاة البلاد من الخطر

زيادة النيل ونقصانه وأطواره

فى عهد العرب[١]

نقلاً عن كتاب « تقويم النيل » لحضرة العلاّمة الجليل أمين باشا سامى

التاريخ م	هـ	
٧٦٩	١٥٢	وصل النيل فى نهاية الفيضان الى ١٢ ذراعا و ١٦ أصبعا
٨٩١	٢٧٨	غار نيل مصر ولم يبق منه شىء فغلت الأسعار بسبب ذلك
٨٦٣	٢٤٩	غلق النيل ١٦ ذراعا
٩٤٤	٣٣٣	وصل النيل الى ١٤ ذراعا و ١٦ أصبعا
٩٥٣	٣٤٢	قصر النيل فوقع البلاء والغلاء
٩٦٢	٣٥١	وصل النيل الى ١٥ ذراعا وهبط
٩٦٣	٣٥٢	« « « ١٥ « و ٤ أصابع وهبط سريعا فوقع الغلاء تسع سنين متوالية
٩٦٤	٣٥٣	وصل النيل الى ١٥ ذراعا وأصبعين
٩٦٥	٣٥٤	وصل النيل الى ١٦ ذراعا ولم يغلقها وهبط سريعا
٩٦٦	٣٥٥	« « « ١٤ ذراعا وأصابع وهبط سريعا
٩٦٧	٣٥٦	« « « ١٢ ذراعا وأصبعا فاستمر الغلاء الى سنة ٣٦٠ فلما دخلت سنة ٣٦١ حصل الوفاء وأخصبت الأرض وتحسنت الأسعار
٩٧٢	٣٦١	أوفى النيل الوفاء التام وأخصبت الأراضى بالزرع
٩٩٧	٣٨٧	قصر النيل عن الوفاء فوقع الغلاء
١٠٠٥	٣٩٥	وصلت الزيادة الى ١٦ ذراعا وأصابع فروى بعض الأراضى
١٠٠٦	٣٩٧	وصلت الزيادة الى ١٣ ذراعا فاستسقى الناس مرتين
١٠٠٧	٣٩٨	وصلت الزيادة الى ١٤ ذراعا وهبط سريعا فوقع الغلاء
١٠٠٨	٣٩٩	فتح الخليج فى ١٥ توت والماء على ١٦ ذراعا ثم نقص فوقع الغلاء بمصر
١٠٣١	٤٢٢	نقص ماء النيل ثم زاد بعد أوانه بأربعة أشهر
١٠٥٢	٤٤٤	قصر النيل عن الزيادة ووقع الغلاء بمصر
١٠٥٥	٤٥٧	« « « « « « «
١٠٥٦	٤٤٨	انقطع ماء النيل فعمّ الوباء والقحط

(١) وأما السنون الغير مذكورة هنا فهى سنو خصب فلذا ضربنا صفحاً عنها

التاريخ م	هـ	
١٠٥٩	٤٥١	وقع الغلاء العظيم بمصر واستمر سبع سنين يزيد فى الأول الى ١٢ ذراعا ثم ينقص وكانت القاعدة ٣ أذرع و ١١ أصبعا
١٠٦٨	٤٦٠	نقص النيل فى هذه السنة والتى بعدها فكان الغلاء العظيم الذى لم يسمع بمثله من عهد يوسف واشتد القحط والوباء سبع سنين
١٠٧٣	٤٦٦	وكان مقدار النيل ١٦ ذراعا وأصبعا
١٠٧٧	٤٧٠	فتح الخليج يوم ١٧ مسرى والماء على ١٥ ذراعا و ١٢ أصبعا ونقص فى ١٣ بابه
١٠٧٨	٤٧١	فتح الخليج يوم ٢٧ مسرى والماء على ١٥ ذراعا و ١٨ أصبعا
١٠٧٩	٤٧٢	فتح الخليج يوم ٢٠ مسرى والماء على ١٥ ذراعا و ١٩ أصبعا
١٠٨٠	٤٧٣	» » » ٥ توت » » ١٥ » و ١٥ »
١٠٨١	٤٧٤	» » » ٢٥ مسرى » » ١٥ » و ١٨ »
١٠٨٢	٤٧٥	بلغ الماء فى ٢٥ توت ١٤ ذراعا ولكن كانت نهاية الفيضان فى هذه السنة ١٥ ذراعا و ١٠ أصابع
١٠٨٣	٤٧٦	فتح الخليج فى ٢ النسىء ونقص فى ٩ بابه
١٠٨٤	٤٧٧	فتح الخليج فى ٢٤ مسرى والماء على ١٥ ذراعا و ١٢ أصبعا
١٠٨٧	٤٨٠	نقص فى ٤ بابه
١٠٨٨	٤٨١	هلك الزرع والغلات والمخازن من كثرة الماء
١١٩١	٤٨٤	انتهت الزيادة الى ١١ ذراعا وأصبعا ثم هبط سريعا
١١٢٣	٥١٧	انتهت الزيادة الى ١٦ ذراعا ثم هبط ووقع الغلاء بمصر
١١٢٤	٥١٨	كان الوفاء على ١٦ ذراعا و ١١ أصبعا ثم نقص ولم يثبت فوقع الغلاء
١١٤٩	٥٤٤	كان النيل عاليا
١١٦٤	٥٥٩	عظمت زيادة النيل وبلغ ١٨ ذراعا و ١٣ أصبعا فسقطت الجدران وغرقت البساتين وفارت الآبار
١١٧٦	٥٧٢	فتح الخليج فى ٢٠ رمضان
١١٨٠	٥٧٦	بلغت الزيادة ½ ١٦ ذراعا
١١٨١	٥٧٧	هبط النيل بدرجة لم يعهد حصولها إلا مرة واحدة فى دولة الفاطميين واشتد الوباء ومات نحو ثلاثة أرباع أهل البلاد وكان وفاء النيل فى ١٦ مسرى من هذه السنة
١١٨١	٥٧٧	فتح الخليج فى ٤ ربيع الثانى والماء على ١٦ ذراعا و ١٥ أصبعا وقال الناس سنة سبع افترست أسباب الحياة
١١٨٢	٥٧٨	بلغت الزيادة ١٨ ذراعا و ١٣ أصبعا وهذا الحد كان يسمى وقتها اللجة الكبرى فسقطت الجدران وغرقت البساتين

التاريخ م	هـ	
١١٨٣	٥٧٩	عظمت زيادة النيل والجزء الثامن من المذكرات نقلا عن المقريزى فى الخطط وهذا من النوادر الغريبة التى لم يسمع بمثلها قط
١١٨٤	٥٨٠	بلغت الزيادة ١٦ ذراعا إلا ثلاث أصابع ووقف فكسر السد ووقع الغلاء بمصر
١١٩١	٥٨٧	لم يزد النيل إلا زيادة يسيرة وهبط من غير وفاء فوقع الغلاء وعدمت الأقوات من مصر واستمر الحال على تلك ثلاث سنين متوالية فمات من شدة الغلاء الثلث
١٢٠٠	٥٩٦	كسر الخليج والماء على ١٣ ذراعا إلا ثلاث أصابع وشرقت الاراضى وعم الغلاء والبلاء
١٢٠١	٥٩٧	توقف النيل عن الزيادة فى هذه السنة لغاية ٦ توت ولم يبلغ إلا ١٥ ذراعا و ١٦ أصبعا وهبط من يومه . فحدث بمصر حوادث من جهة القحط والفناء والموت والمهاجرة ما لم يسبق له مثيل فى القحوط السابقة وقال العماد الكاتب فى وصف حوادث هذه السنة اشتد الغلاء وامتد البلاء وتحدثت المجاعة وتفرقت الجماعة وهلك القوى فكيف الضعيف
١٢٠٣	٥٩٩	زاد النيل زيادة كثيرة ورخصت الأسعار
١٢٣٠	٦٢٧	جاء فى ابن إياس ان النيل بلغ ١٦ ذراعا و ٣ أصابع ولم يثبت فوقع الغلاء وكان فى قاع النيل ذراعين
١٢٣١	٦٢٨	بلغ النيل بعد توقف كبير ١٦ ذراعا و ٣ أصابع وكان غلاء شديد ووصل القمح خمسة دنانير وجاء فى ابن اياس أن نهاية الفيضان كانت ١٦ ذراعا فقط
١٢٣٢	٦٢٩	بلغت الزيادة ١٨ ذراعا و ٦ أصابع وطال مكثه الى آخر هاتور فخاف الناس عدم هبوطه
١٢٤٠	٦٣٧	ولم يقع مثله
١٢٦٣	٦٦١	شح النيل ولم يثبت فوقع الغلاء
١٢٧٣	٦٧٢	أوفى النيل أول ايام النسيء
١٢٩٤	٦٩٣	بلغ النيل ١٥ ذراعا و ٣ أصابع ولم يثبت فوقع الغلاء
١٢٩٥	٦٩٤	بلغت زيادة النيل ١٦ ذراعا و ١٧ أصبعا ثم هبط وحصل بديار مصر غلاء شديد
١٢٩٧	٦٩٦	بلغت زيادة النيل الى أول توت ١٥ ذراعا و ١٨ أصبعا ثم نقص ولم يوف
١٢٩٨	٦٩٧	أوفى بعد توقف

التاريخ		
م	هـ	
١٢٩٩	٦٩٩	(حسن المحاضرة وكوكب الروضة)
١٣٠٣	٧٠٢	قال ابن أبي حجلة قد زاد النيل حتى غرق البلاد ووقع البلاء وعم البلاء
١٣٠٤	٧٠٤	أوفى بعد توقف وانتهت الزيادة الى ١٥ ذراعا و ١٧ أصبعا فشرقت البلاد ووقع الغلاء
١٣٠٥	٧٠٥	(حسن المحاضرة)
١٣٠٩	٧٠٩	توقف النيل واستسقى الناس فلم يسقوا وانتهت زيادته فى ٢٧ توت الى ١٥ ذراعا و١٧ أصبعا فشرقت البلاد ووقع الغلاء وفى ١٧ بابه نقص جملة واحدة
١٣١٣	٧١٣	(ابن اياس وكوكب الروضة)
١٣١٧	٧١٧	وكان الماء على ½ ١٦ ذراعا وجاء فى كوكب الروضة أن فتح الخليج كان ثانى يوم من النقص ثم زاد زيادة عظيمة
١٣٢١	٧٢١	(النجوم الزاهرة)
١٣٢٢	٧٢٢	(» »)
١٣٢٥	٧٢٥	(» »)
١٣٢٧	٧٢٧	قال ابن المتوج : ان النيل بلغ ١٦ ذراعا و٣ أصابع بعد توقف عظيم ووصل القمح خمسة دنانير (الاردب) وذكر المقريزى انه بلغ ١٣ ذراعا و١٣ أصبعا وان مقدار التحاريق كان ذراعين
١٣٢٩	٧٢٩	كانت زيادة النيل ١٨ ذراعا و ٦ أصابع وتأخر نزوله حتى خاف الناس عدم هبوطه
١٣٣١	٧٣١	جاء فى كنز الدرر ان الوفاء كان فى ٢٠ مسرى وفتح الخليج فى يومها والماء على ١٦ ذراعا
١٣٣٥	٧٣٦	(النجوم الزاهرة)
١٣٣٧	٧٣٨	(» »)
١٣٣٨	٧٣٩	بلغت الزيادة ١٦ ذراعا و ١٠ أصابع ثم هبط سريعا فشرقت الأرض ووقع الغلاء وذكر كوكب الروضة أصابع
١٣٣٩	٧٤٠	تأخر النيل فى بلوغه درجة الفيضان
١٣٤٣	٧٤٤	بلغ النيل ٢٠ ذراعا و ١٥ أصبعا فغرقت البساتين وانقطعت الطرق والجسور
١٣٤٦	٧٤٧	كان التحاريق شديدا مع ان صاحب النجوم قال ان التحاريق كان ٥ أذرع
١٣٤٨	٧٤٩	كان التحاريق شديدا مع ان صاحب النجوم قال ان التحاريق كان ٤ أذرع و ٢٠ أصبعا

التاريخ م	هـ	
١٣٥٠	٧٥١	بلغ النيل ١٧ ذراعا وهبط فى ٥ توت فشرقت بلاد كثيرة ووقع الغلاء وتوالى الشراق ثلاث سنين فشق الأمر على الناس
١٣٥١	٧٥٢	سنة شراق
١٣٥٢	٧٥٣	» »
١٣٥٩	٧٦٠	ثبت الى أول هاتور فدعا الناس بهبوطه وبلغ ١٩ ذراعا و ٤ أصابع
١٣٦٠	٧٦١	قال المقريزى : كان النيل مما يتعجب منه فان القاعدة كانت ١٢ ذراعا. وبلغ ١٩ ذراعا و ٩ أصبع وأبطل النداء عليه حتى بلغ ٢٤ ذراعا وخرب عدة مساكن وثبت الى آخر بابه فدعوا الله بهبوطه
١٣٦٣	٧٦٤	توقف النيل ولم يوف إلا فى ٣ توت وبلغ ١٧ ذراعا و ٤ أصابع . ثم هبط سريعا ووقع الغلاء
١٣٧١	٧٧٣	طال مكث النيل فدعوا الله بهبوطه واستمر فى ثبات الى آخر هاتور وفات أوان الزراعة وجاء فى كوكب الروضة أنه كان ٢٠ ذراعا وأصابع . وفى النجوم الزاهرة ١٨ ذراعا و ٤ أصابع
١٣٧٣	٧٧٥	توقف النيل عن الزيادة وكسر السد بعد النيروز بنقص ٥ أصابع عن الوفاء ثم هبط من يومه فاضطربت الأحوال
١٣٨٢	٧٨٤	كان النيل عاليا واستمر حتى دعا الناس بهبوطه. قال المقريزى : انتهت زيادة النيل الى ٢٠ ذراعا و ٣ أصابع فعد ذلك طوفاناً . وكتب الصاحب فخر الدين عبد الرحمن بن عبد الرزاق ابن مكانس الى البدر البشتكى رسالة فى ذلك قال فى مطلعها : رب إجعلنا فى هذا الطوفان من الآمنين وسلام على نوح فى العالمين
١٣٨٣	٧٨٥	مع علو النيل مكث طويلا فغرقت مواضع وتهدمت دور. وذكر ابن اياس مقدار النيل وهو ٢٠ ذراعا و ٥ أصابع
١٣٨٩	٧٩١	انتهت الزيادة الى ١٩ ذراعا و ١٨ أصبعاً وثبت الى تاسع بابه فعد ذلك من النوادر
١٣٩١	٧٩٣	ثبت الى آخر بابه فكان طوفاناً . وقال كوكب الروضة رابع بابه . وقال : أن الوفاء كان فى ثالث مسرى وانتهت الزيادة الى ١٩ ذراعا و ٢٠ أصبعاً
١٣٩٥	٧٩٧	بلغ ١٩ ذراعا و ٨ أصابع وثبت الى رابع بابه فكان طوفاناً
١٣٩٧	٧٩٩	(الجزء الثامن من المذكرات)
١٤٠٣	٨٠٦	توقف النيل وكسر السد فى أول توت مع نقص أربع أصابع على الوفاء ووقع الغلاء وجاء فى النجوم الزاهرة أن النيل أوفى خامس توت .

التاريخ		
م	هـ	
١٤٠٤	٨٠٧	احترق النيل احتراقا شديدا
١٤٠٥	٨٠٨	(الجزء الثامن من المذكرات)
١٤٠٩	٨١٢	أوفى النيل وفتح الخليج فى أول يوم من مسرى . وقال ابن اياس : أنه بلغ ٢٢ ذراعا واصبعاً وثبت الى نصف هاتور فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الزائد وغرق أكثر البلاد . وقال المقريزى أن الوفاء كان فى ٢٩ أبيب .
١٤١٢	٨١٥	(ابن اياس) .
١٤١٣	٨١٦	(») .
١٤١٥	٨١٨	(») .
١٤١٦	٨١٩	(») .
١٤٢٠	٨٢٣	توقف النيل عن الزيادة واستقى الناس وجاء فى ابن اياس أنه أوفى وكان نيلا شحيحا ولم يثبت روى نصف البلاد ووقع الشراق والغلاء .
١٤٢١	٨٢٤	وبلغت الزيادة ١٨ ذراعا و ٢٠ أصبعاً
١٤٢٢	٨٢٥	انتهت الزيادة الى ٢٠ ذراعا وأصبعاً وثبت الى نصف هاتور فحصل ضرر عظيم من عدم هبوطه وتعذر الزرع لفوات أوانه . وجاء فى كوكب الروضة أن الوفاء كان فى ٢٩ أبيب .
١٤٢٣	٨٢٦	(ابن اياس)
١٤٢٤	٨٢٧	(»)
١٤٢٥	٨٢٨	(»)
١٤٢٦	٨٣٠	انتهت الزيادة الى ١٧ ذراعا وأصبعين ثم نقص بعد ذلك ولم يثبت فشرقت البلاد ووقع الغلاء
١٤٢٧	٨٣١	(ابن اياس)
١٤٢٨	٨٣٢	وهبط سريعاً فشرق غالب البلاد ووقع الغلاء
١٤٢٩	٨٣٣	(ابن اياس)
١٤٣٠	٨٣٤	وجاء فى كوكب الروضة أنه أوفى فى ٢٩ أبيب .
١٤٣٣	٨٣٧	أوفى النيل فى هذه السنة مرتين
١٤٣٩	٨٤٣	بلغ النيل ٢٠ ذراعا و ١٠ أصابع
١٤٤٠	٨٤٤	بلغ النيل ٢٠ ذراعا و ٣١ أصبعا
١٤٤١	٨٤٥	أن النيل زاد زيادة مفرطة فى رابع بؤونة فغرقت الأمكنة وحصل الضرر ووصل النيل فى غير أوانه ١٩ ذراعا و ٢٠ أصبعاً واستمرت الزيادة عمالة حتى أوفى فى ٢٧ أبيب .

التاريخ م	هـ	
١٤٤٩	٨٥٣	توقف النيل عن الوفاء أياماً
١٤٥٠	٨٥٤	خس النيل وكسر الخليج وقد بقى ثمانى أصابع من الوفاء وحصل غلاء شديد وجاء فى كوكب الروضة لم يوف النيل وكسر الخليج وباق على الوفاء أصبع فهبط وشرقت الأراضى ووقع الغلاء
١٤٦٢	٨٦٦	أوفى بعد توقف واستسقاء
١٤٦٦	٨٧١	أوفى بعد توقف واستسقاء : أن الوفاء كان فى غاية ذى الحجة سنة ٨٧٠ الموافق ٢٠ مسرى . وكل التقاويم اجمعت على أن ٢٠ مسرى يطابق غرة المحرم سنة ٨٧١
١٤٦٨	٨٧٣	أوفى بعد توقف وهبط سريعاً أثناء توت وتزايد الغلاء
١٤٧٧	٨٨٢	فتح السد أول يوم من مسرى وانتهت الزيادة الى ٢٠ ذراعا و ٢١ أصبعاً فى أواخر بابه فغرقت الأراضى والطرق
١٤٧٨	٨٨٣	وجاء فى كوكب الروضة أن الوفاء كان فى ٢٩ أبيب .
١٤٧٩	٨٨٤	وفتح السد فى غاية أبيب
١٤٨٤	٨٨٩	انتهت الزيادة الى ١٩ ذراعا و٢٣ أصبعاً وهبط بسرعة فى أواخر مسرى فاشتد الغلاء
١٤٨٥	٨٩٠	انتهت الزيادة الى ١٧ ذراعا فاشتد الغلاء
١٤٨٩	٨٩٤	وفى كوكب الروضة الوفاء فى ٥ مسرى وكسر السد فى ٦ منه .
١٤٩١	٨٩٦	الموافق ليلة عيد الفطر وكسر السد ثانى شوال
١٤٩٢	٨٩٧	وسارت بالبشرى فى البلاد رسائل .
١٤٩٦	٩٠٢	أوفى بعد توقف وفتح الخليج يوم ٢٨ فكان الوفاء متأخرا نحو ٢٠ يوما ولم يعم سوى ايام ثم هبط سريعا فشرقت الأراضى وارتفعت الاسعار
١٤٩٨	٩٠٤	اوفى النيل فى هذه السنة مرتين الاولى فى ٢٩ مسرى والثانية فى ٢٠ الحجة واستمر النيل فى الثانية فى ثبات الى اواخر بابه
١٥٠٠	٩٠٦	وانتهت الزيادة الى ١٩ ذراعا و ١٧ اصبعا وثبت الى نصف بابه .
١٥٠١	٩٠٧	فتح السد فى ٩ مسرى
١٥٠٢	٩٠٨	وانتهت الزيادة الى ١٨ ذراعا و ٢١ اصبعا وكان نيلا شحيحا
١٥٠٣	٩٠٩	وانتهت الزيادة الى ١٨ ذراعا و ١٣ اصبعا وثبت الى عشرين توت
١٥٠٥	٩١١	انتهت الزيادة الى ١٩ ذراعا واصبعين وهبط سريعا
١٥٠٧	٩١٣	وثبت على ١٩ ذراعا و ٥ اصابع الى عشرين بابه
١٥٠٨	٩١٤	وانتهت الزيادة الى ١٨ ذراعا و ٢٢ اصبعا وثبت الى اخر بابه
١٥٠٩	٩١٥	وانتهت الزيادة الى ١٧ ذراعا و ٢١ اصبعا وثبت الى آخر توت

التاريخ م	هـ	
١٥١٠	٩١٦	وثبت على ١٩ ذراعا و ٩ اصابع الى ١٧ توت
١٥١١	٩١٧	وفتح السد فى اليوم الذى يليه وانتهت الزيادة الى ٢٠ ذراعا واصبعا
١٥١٢	٩١٨	وانتهت الزيادة الى ١٩ ذراعا و ٤ اصابع
١٥١٤	٩٢٠	وفتح السد فى سادس مسرى
١٥١٥	٩٢١	وثبت على ٢٠ ذراعا و ١٦ اصبعا فى اوائل هاتور وحصل به غاية النفع وفتح السد فى ٦ مسرى
١٥١٦	٩٢٢	وثبت على ½ ١٩ ذراعا
١٥٧١	٩٧٩	سنة خصب حيث زاد النيل فيها زيادة كثيرة .
١٦٢٢	١٠٣١	زاد النيل زيادة عظيمة قريبا من ٢٣ ذراعا ثم بعد نزوله زاد زيادة أخرى عظيمة وتلف بعض الزرع واستمر الخليج يجرى بالقاهرة فوق ١٠٠ يوم وحصل بسبب ذلك غلاء عظيم
١٦٤١	١٠٥١	بلغت الزيادة ١٥ ذراعا وهبط فوقع الغلاء والقحط
١٦٩٤	١١٠٦	قصر النيل وهبط بسرعة فشرقت الاراضى ووقع الغلاء
١٧٠٤	١١١٦	توقف النيل فاستسقوا وزاد فى ١١ توت حتى بلغ ١٧ ذراعا فروى بعض البلاد وهبط سريعا فاشتد الغلاء
١٧٢٢	١١٣٤	قصر النيل فى هذه السنة وغلت الأسعار فى السنة التى بعدها
١٧٧٨	١١٩٢	زاد النيل زيادة مفرطة حتى انقطعت الطرقات واستمر الى آخر توت
١٧٨٣	١١٩٧	قصر النيل وهبط قبل الصليب بسرعة فشرقت البلاد القبلية والبحرية وغلت الأسعار حتى بلغ سعر القمح ١٠ ريالات (الاردب) واشتد جوع الفقراء
١٧٨٤	١١٩٨	قصر النيل فكانت شدة الغلاء كالسنة التى قبلها .
١٧٩٢	١٢٠٦	فى المحرم من هـذه السنة هبط النيل مرة واحدة فشرقت الاراضى ولم يرو منها إلا القليل فاشتد الغلاء
١٧٩٢	١٢٠٧	هبط النيل قبل الصليب بعشرة ايام وذلك بعد الوفاء الذى حصل فى السنة التى قبلها وكان ناقصا عن ميعاد الرى نحو ذراعين فغلت الاسعار حتى بلغ ثمن الاردب من القمح ١٨ ريالا وأكلت الناس الميتة من الخيل والحمير والاطفال
١٧٩٣	١٢٠٨	بلغ النيل الزيادة المتوسطة وثبت الى اول بابه وشمل الماء غالب الاراضى بسبب التفات الناس الى سد المجارى وحفر الترع واصلاح الجسور
١٧٩٩	١٢١٤	فتح الخليج يوم ٢٤ اغسطس
١٨٠٠	١٢١٥	فتح الخليج فى ١٧ اغسطس وزاد النيل زيادة مفرطة حتى غرقت البلاد وتقطعت الطرق ومكث زائدا الى آخر توت

التاريخ م	هـ	
١٨٠٢	١٢١٧	وكسر السد فى ٧ منه
١٨٠٣	١٢١٨	وكسر الخليج صبحها وهو على ١٧ ذراعا ونقص ماء النيل فى ايام النسى نقصا فاحشا وانحدر من على الارض فعلت الاسعار وقامت الناس شدائد
١٨٠٤	١٢١٩	اوفى النيل ١٧ ذراعا وكسر الخليج فى صبح يوم السبت
١٨٠٦	١٢٢١	فتح الخليج يوم الخميس ٩ مسرى . ويقال انه فتح قبل الوفاء
١٨٠٧	١٢٢٢	فتح الخليج يوم السبت ٧ مسرى وكانّ ضعيفا وهاف الزرع
١٨٠٨	١٢٢٣	ما وفى النيل إلا بعد ان استقى الناس
١٨٠٩	١٢٢٤	اوفى وزاد زيادة مفرطة وتلف بعلوه الدراوى والاقصاب بالوجه القبلى والارز والقطن
١٨١٠	١٢٢٥	اوفى النيل بعد توقف طال زمنه واستسقى الناس فى رابع شعبان ثم زاد النيل وثبت الى آخر توت واطمأن الناس
١٨١١	١٢٢٦	وفتح الخليج ثامن مسرى
١٨١٥	١٢٣٠	ولم يحصل وفاء فى آخر ابيب إلا مرة واحدة فى سنة ١٢٨٣ وبينها وبين هذه السنة سنة ٤٧
١٨١٦	١٢٣١	وفتح السد فى ٥ منه
١٨١٧	١٢٣٢	جاء النيل مبكراً فى نصف بؤونه
١٨١٨	١٢٣٣	كانت زيادة النيل مفرطة لم يسمع بمثلها وأغرق كثيرا من الزرع الصيفية وانهدم بسببه قرى كثيرة وغرق كثير من الناس والحيوان وعلا الماء على جزيرة الروضة حتى صارت السفن تسير فوقها .
١٨١٩	١٢٣٤	كانت زيادة النيل مفرطة اكثر من العام الماضى واستمر عاليا الى منتصف هاتور حتى فات أوان الزراعة
١٨٢٠	١٢٣٥	فتح السد رابع مسرى . وكانت زيادة النيل مفرطة وأغرقت الزرع والأماكن
١٨٢١	١٢٣٦	لم يستتم النيل أذرع الوفاء الى ١٨ مسرى حتى ضجر الناس وضج الفلاحون
١٨٤٧	١٥٦٣	وقد بلغ النيل ١٦ ذراعا و ٧ أصابع وكانت نهاية النيل ٢٣ ذراعا وأصبعين
١٨٤٨	١٢٦٤	وكان الماء على ١٦ ذراعا وكانت نهاية الفيضان ٢٤ ذراعا و ٦ أصابع
١٨٧٣	١٢٩٠	وكان الماء على ١٥ ذراعا و ٨ أصابع وفى اليوم الذى بعده ١٦ ذراعا و ٨ أصبعا وكانت نهاية الفيضان ٢٠ ذراعا و ١٣ أصبعاً وهبط مبكراً .

التاريخ م	هـ	
١٨٧٤	١٢٩١	وكان الماء على ١٥ ذراعا و ١٦ أصبعاً وفى اليوم الذى بعده ١٦ ذراعا و ١٣ أصبعاً و بلغ فى نهاية الفيضان ٢٦ ذراعا و١٣ أصبعاً وحصل غرق تسبب عنه كسر قنطرة الشرقاوية وقطع السكة الحديدية التى هى بين بولاق الدكرور والمنيا واستمر الماء ١١٥ يوماً ولولا العناية التى بذلت من الحكومة وسنها قوانين صارمة لنشأ عن الغرق مضرات لا يمكن حصرها . وقد جمع الاجانب مبالغ بقصد عمل تمثال للمغفور له الخديوى اسماعيل باشا فى مقابلة العناية التى بذلها ولكنه فضل انشاء مدرسة مجانيـة أنشئت فى الاسكندرية بدلا من اقامة التمثال وهى باقية للان
١٨٧٥	١٢٩٢	والماء على ١٥ ذراعا و ١٦ أصبعا وهو أزيد من الوفاء بثلاث عشر قيراطاً وكانت نهاية الفيضان ٢٣ ذراعا و ٢٢ أصبعاً
١٨٧٦	١٢٩٣	والماء على ١٥ ذراعا و ٦ أصابع وهو أزيد من الوفاء بثلاثة قراريط . وكانت نهاية الفيضان ٢٢ ذراعا و ٢٣ أصبعاً .
١٨٧٧	١٢٩٤	والماء على ١٥ ذراعا و ٣ أصابع وهو المقدار المقرر للوفاء ولم يبلغ النيل إلا ١٧ ذراعا و ٣ أصابع وهبط سريعاً فحصل شراق ترتب عليه ترك نصف مال الوجه البحرى ومعظم مال الوجه القبلى حتى بلغ قيمة المتروك من المال ١,١٢٠,٠٠٠ جنيهاً عن ١,٣٠٠,٠٠٠ فداناً وقد بلغ ثمن الأردب القمح ثلاثة جنيهات والذرة جنيهين واكل بعضهم الحشائش لسد الرمق ومات بعضهم وكثرت وقائع القتل والسلب والنهب
١٨٧٨	١٢٩٥	والماء على ١٥ذراعا و ٥ أصابع وهو أزيد من الوفاء بقيراطين . وكانت نهاية الفيضان ٢٦ ذراعا و ٦ أصابع ومكث الماء فى علو ١٠٤ أيام
١٨٧٩	١٢٩٦	والماء على ١٥ ذراعا و ٦ أصابع وهو أزيد من المقدار المقرر للوفاء بثلاثة قراريط. وكانت نهاية الفيضان ٢٤ ذراعا و ١١ أصبعاً
١٨٨٠	١٢٩٧	والماء على ١٥ ذراعا و ٦ أصابع وهو أزيد من الوفاء بثلاثة قراريط . وكانت نهاية الفيضان ٢١ ذراعا و١٧ أصبعاً وهبط سريعاً حيث لم يمكث سوى ٥٩ يوماً .
١٨٨١	١٢٩٨	والماء على ١٥ ذراعاً و ٤ أصابع وهو أزيد من الوفاء بقيراط واحد . وكانت نهاية الفيضان ٢١ ذراعا و ٩ أصابع ولم يمكث سوى ٥٩ يوما .
١٨٨٣	١٣٠٠	والماء على ١٥ ذراعا و ٢٢ أصبعاً وفى اليوم الذى بعده ١٧ ذراعا و ٣ أصابع وكانت نهاية الفيضان ٢٤ ذراعا وأصبعا .

التاريخ م	التاريخ هـ	
١٨٨٤	١٣٠١	وكان الماء على ١٥ ذراعا و ١٢ أصبعا وفى اليوم الذى بعده ١٦ ذراعا و ١٧ أصبعا . وكانت نهاية الفيضان ٢٢ ذراعا و ١١ أصبعا
١٨٨٥	١٣٠٢	وكان الماء على ١٥ ذراعا و ٣ أصابع وهو المقدار المقرر للوفاء . واحتفل بجبر الخليج فى غاية أبيب موافق ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٥ والنيل يومها ١٧ ذراعا و ١٨ أصبعا . وكانت نهاية الفيضان ٢٢ ذراعا و ١٨ أصبعا
١٨٨٦	١٣٠٣	والماء على ١٥ ذراعا و ١٣ أصبعا وكان فى اليوم الذى يليه ١٦ ذراعا و ١٠ أصابع وقطع الخليج فى ١٧ اغسطس سنة ١٨٨٦ والماء على ١٨ ذراعا و ١٦ اصبعا وبلغ فى النهاية ٢٢ ذراعا و ٧ أصابع
١٨٨٧	١٣٠٤	والماء على ١٥ ذراعا و ١٦ أصبعا بزيادة ١٣ قيراطا عن الوفاء وجبر الخليج أول مسرى سنة ١٦٠٣ والماء على ١٥ ذراعا و ١٩ اصبعا وكانت نهاية الفيضان ١٨ ذراعا و ١٤ اصبعا ولم يصل لهذا المقدار الا فى فترة صغيرة فتخلف كثير من الأراضى بدون رى بلغ مقدارها ٢٧٩٦٠٠ فدان ودفع مالها البالغ قدره ٣٤٢٥٣٧ جنيها فقرر مجلس النظار فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٨ قيام نظارة الاشغال باجراء تخفيف ويلات الشراقى وبلغها ذلك فى ١٩ نوفمبر من تلك السنة
١٨٨٩	١٣٠٦	والماء على ١٥ ذراعا و ٩ اصابع وكان فى اليوم الذى يليه ١٦ ذراعا . وقطع الخليج فى ٦ مسرى سنة ١٦٠٥ وكانت نهاية الفيضان ٢٢ ذراعا و ٢١ أصبعا
١٨٩٠	١٣٠٧	والماء على ١٥ ذراعا و ٤ اصابع وهو أزيد من الوفاء بقيراط . وجبر الخليج فى ٣ مسرى والماء على ١٥ ذراعا و ٢٣ أصبعا . وكانت نهاية الفيضان ٢٣ ذراعا و ١٤ اصبعا
	١٣٠٨	خلت سنة ١٣٠٨ من وفاء النيل
١٨٩١	١٣٠٩	والماء على ١٥ ذراعا و ١١ اصبعا وكان فى اليوم الذى يليه ١٦ ذراعا و ٥ اصابع . وقطع الخليج فى ٩ مسرى سنة ١٦٠٧ والماء على ١٧ ذراعا و ١٢ أصبعا . وكانت نهاية الفيضان ٢٢ ذراعا و ٢٠ اصبعا وتخلف ٧٨٣٠ فدان بدون رى ورفع مالها وقدره ٦٥٢٢ جنيها .
١٨٩٢	١٣١٠	والماء على ١٥ ذراعا و ٨ اصابع وهو ازيد بخمس قراريط عن الوفاء وجبر الخليج فى ٣ مسرى والماء على ١٥ ذراعا و ٢٢ اصبعا . وكانت نهاية الفيضان ٢٥ ذراعا واصبعين .

التاريخ م	التاريخ هـ	
١٨٩٣	١٣١١	والمـاء على ١٥ ذراعا و ٥ اصابع وهو ازيد بقيراطين عن الوفاء . وجبر الخليج فى ٧ مسرى سنة ١٦٠٩ والمـاء على ١٦ ذراعا و١٧ اصبعا . وكانت نهاية الفيضان ٢٢ ذراعا و ١٩ اصبعا وتخلف ٧٠٥٩ فدان بدون رى ورفع مالها وقدره ٦٣٦٩ جنيها .
١٨٩٤	١٣١٢	والماء على ١٥ ذراعا واصبعا وكان فى اليوم الذى يليه ١٦ ذراعا . وجبر الخليج فى ٧ مسرى سنة ١٦١٠ والماء على ١٨ ذراعا و ٧ اصابع وبلغ فى النهاية ٢٤ ذراعا و ٢١ اصبعا .
١٨٩٥	١٣١٣	والماء على ١٥ ذراعا و ٨ اصابع وهو ازيد من الوفاء بخمسة قراريط وكانت نهاية الفيضان ٢٣ ذراعا و ٢٢ اصبعا .
١٨٩٦	١٣١٤	والماء على ١٥ ذراعا و ٧ اصابع وهو ازيد ٣ قراريط عن الوفاء . وكانت نهاية الفيضان ٢٣ ذراعا و ١٤ اصبعا .
١٨٩٧	١٣١٥	والماء على ١٥ ذراعا و ٦ اصابع . وفتح الخليج فى ١٨ اغسطس سنة ١٨٩٧ وكانت نهاية الفيضان ١٩ ذراعا و ٢٠ اصبعا وهبط مبكراً وتخلف ١١١٩٩ فدانا بدون رى ورفع مالهـا وقدره ٨٧٧٤ جنيها
١٨٩٨	١٣١٦	والماء على ١٥ ذراعا و ٥ اصابع وكان فى اليوم الذى يليه ١٧ ذراعا وجبر الخليج فى ١٠ مسرى والماء على ١٩ ذراعا و ١٦ أصبعا . وكانت نهاية الفيضان ٢٣ ذراعا و ١٠ اصابع وتخلف ٩٧٢٨ فدانا بدون رى ورفع مالها وقدره ٨٥٦٠ جنيها .
١٨٩٩	١٣١٧	والماء على ١٥ ذراعا و ٣ أصابع وهو المقـدار المقرر للوفاء وكانت نهاية الفيضان ١٦ ذراعا فقط ومع كونه منحطاً فان أيام الفيضان لم تزد عن ٧٥ يوما .
١٩٠٠	١٣١٨	والماء على ١٥ ذراعا و ١٢ اصبعا . وكان فى اليوم الذى يليه ١٦ ذراعا و ١٤ اصبعا وكان جبر الخليج فى ١٥ اغسطس سنة ١٩٠٠ والماء على ١٨ ذراعا و ٨ أصابع . وكانت نهاية الفيضان ٢٠ ذراعا و ١٤ أصبعا وتخلف ١١٨٢٨ فدانا بدون رى ورفع مالها من ميزانية السنة التى بعدها وقدره ٨٥٨٩ جنيها .
١٩٠١	١٣١٩	والماء على ١٥ ذراعا و ٧ أصابع وهو أزيد بأربعة قرايط عن الوفاء وكانت نهاية الفيضان ٢١ ذراعا و ٨ أصابع وكان نيلا قليلا وتخلف ٧٤٥٣ فدانا بدون رى ورفع مالها من ميزانية السنة التى بعدها وقدره ٥٧٧٥ جنيها

التاريخ م	هـ	
١٩٠٢	١٣٢٠	والماء على ١٥ ذراعا و ٤ اصابع وهو أزيد من الوفاء بقيراط واحد وكانت نهاية الفيضان١٨ ذراعا و ١٢ اصبعا وتخلف بسبب انحطاط النيل نحو ١١٩٣٧٢ فدانا بدون رى ورفع مالها وقدره ١٠٨٠٢٤ جنيها من ميزانية السنة التى بعدها .
١٩٠٣	١٣٢١	والماء على ١٥ ذراعا و ٦ اصابع وهو أزيد من الوفاء بثلاثة قراريط . واحتفل بوفاء النيل فى ٣٧ اغسطس والماء على ١٨ ذراعا و ١٨ اصبعا . وكانت نهاية الفيضان ٢٢ ذراعا و ٩ اصابع .
١٩٠٤	١٣٢٢	والماء على ١٥ ذراعا و ٤ اصابع وهو زائد قيراط عن الوفاء . واحتفل بالوفاء فى ٢٧ اغسطس والماء على ١٨ ذراعا و ٨ اصابع . وكانت نهاية الفيضان ١٩ ذراعا واصبعين وانصرف مبكراً ولم يرو من الوجـه القبلى ماروى إلا بسبب اقفال قناطر اسيوط التى تم انشاؤها سنتها .
١٩٠٥	١٣٢٣	والماء على ١٥ ذراعا و ٩ اصابع وفيه ٦ اصابع زيادة عن الوفاء . وفيه احتفل بالوفاء . وكانت نهاية الفيضان ١٩ ذراعا واصبعين وكان الأمر كالعام الماضى .
١٩٠٦	١٣٢٤	والماء على ١٥ ذراعا و ٤ اصابع وفيه قيراط زيادة عن الوفاء . واحتفل فى ٢٥ اغسطس بالوفاء . وكانت نهاية الفيضـان ٢٢ ذراعا و٨ اصابع
١٩٠٧	١٣٢٥	والماء على ١٥ ذراعا و ٤ اصابع وفيه قيراط زيادة عن الوفاء . واحتفل بالوفاء فى اليوم الذى قبله . وكانت نهاية الفيضان ١٨ ذراعا و ١٢ اصبعا ومع كون النيل منحطا انصرف مبكرا .
١٩٠٨	١٣٢٦	والماء على ١٥ ذراعا و ٧ اصابع وهو ازيد من الوفاء باربعة قراريط . واحتفل بالوفاء فى ٢٢ اغسطس . وكانت نهاية الفيضان ٢٤ ذراعا و ٤ اصابع .
١٩٠٩	١٣٢٧	والماء على ١٥ ذراعا و ٣ اصابع وهو المقدار المقرر للوفاء . واحتفل بوفاء النيل فى ٢١ اغسطس . وكانت نهاية الفيضان ٢٣ ذراعا و ١٦ اصبعا .
١٩١٠	١٣٢٨	والماء على ١٥ ذراعا و ٩ اصابع وفيـه ٦ قراريط زيادة عن الوفاء . واحتفل بالوفاء فى ٢٥ اغسطس . وكانت نهاية الفيضان ٢٣ ذراعا و١٠ اصابع .
١٩١١	١٣٢٩	والماء على ١٥ ذراعا و ٤ اصابع وفيه قيراط زيادة عن الوفاء واحتفل بالوفاء فى ٢٣ اغسطس . وكانت نهاية الفيضان ٢٢ ذراعا و ٤ اصابع

التاريخ م	هـ	
١٩١٢	١٣٣٠	والماء على ١٥ ذراعا و٧ اصابع وهو أزيد باربعة قراريط عن الوفاء . واحتفل بالوفاء فى ١٩ اغسطس . وكانت نهاية الفيضان ٢٠ ذراعا و ٨ اصابع .
١٩١٣	١٣٣١	والماء على ١٥ ذراعا و ٣ اصابع وهو المقدار المقرر للوفاء . ولكن احتفل بوفاء النيل فى هـذه السنة فى ٤ سبتمبر والماء على ١٤ ذراعا و١٣ قيراطا ووقع على محضر الوفاء حضرات أصحاب السعادة حسين باشا واصف مفتش رى الجيزة وامين بك واصف مدير الجيزة حينذاك بان هذا المقدار وان كان أقل من ١٥ ذراعا و ٣ اصابع إلا انه بالنسبة للنظامات الحديثة يكفى للوفاء . وكانت نهاية الفيضان فى هذه السنة ١٥ ذراعا و ٦ اصابع وانه لولا اتمام تعلية الخزان فى تلك السنة ما تيسر رى ما روى من اراضى القطر مطلقا
١٩١٤	١٣٣٢	والماء على ١٥ ذراعا و ٣ اصابع وهو المقدار المقرر للوفاء . واحتفل بوفاء النيل فى ٢٧ اغسطس سنة ١٩١٤ وكانت منتهى الزيادة ٢١ ذراعا و ١٠ اصابع .



تمثال للنيل على شكل انسان محفوظ اليوم فى حدائق التويليرى بباريز

Le Nil personnifié. Statue du jardin des Tuileries

نتائج زيادة النيل ونقصانه

فى عهد العرب

لما فقدت مصر استقلالها قبل ألفى سنة تهاون ولاة الأمور الأجانب فى شؤون البلاد ، حتى أهملوا نظام الرى ، وتعطلت زراعة الأرض ، ونضبت موارد المعيشة على الناس ، فهاجروا وهجروا البلاد فصارت بعدهم اطلالاً بالية وآثاراً خاوية ، وأصبح كثير من الجهات حُفراً ومستنقعات . ولو كان فى هذه العصور حكومة وطنية تهتم بالمصالح الحيوية لما تمادت على هذا الاهمال الذى أوقع البلاد فى مهاوى الدمار والخراب

وكانت زيادة النيل فى هذه العصور تهاجم المدن والقرى فتدمرها لعدم اقامة الجسور واختلال نظام الرى الذى عليـه مدار الحياة . ومن طبيعة الحكومة الوطنية أن تحافظ على نظامها المرتبط بحياة الأمة ، ولكن من سوء حظ مصر أن توالت عليها إذ ذاك حكومات أجنبية مختلفة لم تهتم بمصلحة البلاد ولا بنظام شؤونها كما هى العادة قديماً وحديثاً فى كل زمان ومكان

وإذا نظرت إلى البلاد وجدتها　　　تشقى كما تشقى العباد وتسعد

ومن المأثور عن نابليون بونابرت قوله « من علامة حسن الإدارة فى البلاد أن ترى نظام الرى معتدلاً والترع مطهرة والفيضان منتفعاً به فى كل مكان ، وان علامة ضعف الحكومة واختلال شئونها أن ترى الترع معطلة لعدم تطهيرها والجسور مهدمة ونظام الرى فاسداً وقوانين توزيع المياه جائرة »

كم تحكمت فى مصر حكومات أجنبية أثقلت عواتق الرعية بالضرائب الباهظة والغرامات الفادحة . فكنت ترى أفراد الهيئة الحاكمة من الوالى إلى الجندى البسيط ، لاهمّ للجميع إلاّ جمع المال وإحراز الثروة وأوقعوا النهب

والسلب فى المصريين وأذلوهم وأذاقوهم الأمرّين حتى سئموا الحياة واضطروا للثورات السياسية

وكان عبد اللطيف البغدادى[1] طبيباً ابن طبيب ، زار مصر سنة ٥٩٧ هـ وذكر ما حصل بها من البؤس والشقاء من جراء زيادة فيضان النيل فى أرض مصر فقال فى كتابه « مختصر أخبار مصر » :

« إن نيل مصر يمد وقت نضوب مياه الأرض ، وذلك فى شمس السرطان والأسد والسنبلة ، فيعلو على الأرض ويقيم أياماً ، فاذا نزل عنها حرثت وزرعت ثم يكثر الندا فى الليل جداً ، وبه يتغذى الزرع الى أن يستحصد ، ونهاية ما تدعو اليه الحاجة من الزيادة ثمانية عشرة ذراعاً فان زاد على ذلك فانه يروى أمكنة مستعلية »

وروى لنا ما رآه بعينه من الفظائع التى وقعت فى مصر سنة ٥٩٧ « دخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وشمل أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع ، وانضوى أهلى السواد كالريف إلى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم الى الشأم والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا فى البلاد أيادى سبا ومزقوا كل ممزق ، ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعند نزول الشمس بالحمل وبرد الهواء ووقع المرض والموت واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ، ثم تعدوا ذلك الى أن اكلوا صغار بنى آدم ، فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل

---

(١) عبد اللطيف البغدادى هو الامام موفق الدين أبو محمد بن يوسف بن محمد بن على بن أبى سعيد ويعرف بابن اللباد موصلى الاصل بغدادى المولد . زار مصر وأقام بها من سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) الى ما بعد سنة ٥٩٨ هـ (سنة ١٢٠١ م) وتوفى ببغداد سنة ٦٢٩ هـ (٩ نوفمبر سنة ١٢٣١ م)

ورأيت صغيراً مشوياً فى قفة وقد أحضر الى دار الولى ومعه رجل وامرأة زعم الناس انهما أبواه فأمر باحراقهما

ووجد فى رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه من اللحم ، فأكل وبقى قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم . ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح وحين ما تشم الفقراء فى اكل بنى آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون فى ذلك استفظاعاً لأمره وتعجباً من ندوره

ثم اشتد اليه اضطرارهم بحيث اتخذوه معيشة ومطيبة ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ، ووجد بكل مكان من ديار مصر ، فسقط حينئذ التعجب والاستشناع واستهجن الكلام فيه والسماع له . ولقد رأيت امرأة مشججة يسحبها الرعاع فى السوق ، وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم ، لم أرَ فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ، فعاد تعجبى منهم أشد وما ذلك إلا لكثرة تكرره على احساسهم ، حتى صار فى حكم المألوف الذى لا يستحق أن يتعجب منه

ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً ، وقد أخذ به شابان أمرا بقتله وشيه وأكل بعضه . وفى بعض الليالى بعد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير ، فبينما هو الى جانبها اتهزت غفلتها عنه صعلوكة ، فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيًّا ، وحكيت لى عدة نساء أنه يتوثب عليهن لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن

ورأيت مع امرأة فطيماً لحيماً فاستحسنته وأوصيتها بحفظه ، فحكت لى أنها بينا تمشى على الخليج انقضّ عليها رجل جاف ينازعها ولدها ، فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس وطرده عنها ، وزعمت أنه كان يهمّ بكل عضو يظهر منه أن يأكله وأن الولد بقى مدة مريضاً لشدة تجاذبه بين المرأة والمفترس

وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس ، منثين فى جميع أقطار البلاد وأزقة الدروب كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم فى الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ

واكثر ما كان يقع من ذلك مع النساء وما أظن العلة فيه الا أن النساء أقل حيلة من الرجال ، وأضعف عن التباعد والاستتار : ولقد أحرق بمصر خاصة فى أيام يسيرة ثلثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ، فرأيت امرأة قد أحضرت الى الوالى وفى عنقها طفل مشوى فضربت اكثر من ٢٠٠ سوط على أن تقر فلا تحير جوابا ، بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت على مكان

واذا أحرق آكل أصبح وقد صار مأكولاً لأنه يعود شواء ويستغنى عن طبخه

ثم نشأ فيهم أكل بعضهم بعضاً حتى تفانى اكثرهم ، ودخل فى ذلك جماعة من المياسير والمساتير منهم من يفعله حاجة ومنهم من يفعله استطابة

وحكى لنا رجل انه كان له صديق أدقع فى هذه النازلة ، فدعاه صديقه هذا الى منزله ليأكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل . فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر ، وبين أيديهم طبيخ كثير اللحم وليس معه خبز ، فرابه ذلك وطلب المرحاض ، فصادف عنده خزانة مشحونة برم الآدمى وباللحم الطرى ، فارتاع وخرج فاراً . وظهر من هؤلاء الخبثاء من يتصيد الناس باصناف الحبايل ، ويجتلبونهم الى مكانهم بأنواع المخاتل ، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء : أما أحدهم فان أباه خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امرأة اعطته درهمين على أن يصحبها الى مريضها ، فلما توغلت به

مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها وانسلت ، وأما الثالث فان رجلاً استصحبه الى مريضه فى الشارع يزعمه وجعل فى اثناء الطريق يصدق بالكسر ويقول اليوم يغتنم الثواب ويتضاعف الأجر ولمثل هذا فليعمل العاملون ، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب ومع ذلك لحسن الظن يغلبه وقوة الطبع تجذبه حتى أدخله داراً خربة فزاد استشعاره وتوقف فى الدرج

وسبق الرجل فاستفتح فخرج اليه رفيقه يقول له هل مع ابطائك حصل صيد ينفع فخرج الطبيب لما سمع ذلك ، وألقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها لسعادته ، فقام اليه صاحب الأصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنهُ خوفاً منه أيضاً ، فقال له قد علمت حالك فان أهل هـذا المنزل يذبحون الناس بالختل

ووجد باطفيح عند عطار عدة خوابى ملآة بلحم الآدمى وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه فقال خفت اذا دام الجدب أن يهزل الناس

وكان جماعة من الفقراء قد آووا الى الجزيرة وتستروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس ، ففطن لهم وطلب قتلهم فهربوا ، ووجد فى بيوتهم من عظام بنى آدم شىء كثير ، وخبرنى الثقة أن الذى وجد فى بيوتهم أربعمائة جمجمة

ومما شاع وسمع من لفظ الوالى أن امرأة أتته سافرة مذعورة ، تذكر أنها قابلة وان قوماً استدعوها وقدموا لها صحناً فيه مكباج محكم الصنعة مكمل التوابل فألفته كثير اللحم مباينا للحم المعهود ، فتقززت منه ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم فقالت أن فلانة السمينة دخلت لتزورها فذبحها أبى وها هى معلقة إرَباً ، فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها أنابير

لحم فلما قصت على الوالى القصة ، أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه فى خفيــة بثلثمائة دينار ليحقن بذلك دمه .

ومن غريب ما حدث من ذلك أن امرأة من نساء الأجناد ذات مال ويسار كانت حاملاً ، وزوجها غائب فى الخدمة ، وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طبيخ فطلبت منه كما من عادة الحبالى فألفته لذيذاً فاستزادتهم فزعموا أنه نفذ فسألتهم عن كيفية عمله فأسروا اليها انه لحم بنى آدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء ، فلما تكرر ذلك منها وضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جواريها خوفاً منها ، فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراماً لزوجها وابقاء على الولد فى جوفها

ولو أخذنا نقتص كل ما نرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر ، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه ، وانما هو شىء صدفناه اتفاقاً ، بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره

وأما من يتحين ذلك بدار الوالى فانه يجد منه أصنافاً تحضر مع آناء الليل والنهار ، وقد يوجد فى قدر واحدة اثنان وثلاثة واكثر ، ووجد فى بعض الأيام قدر فيها عشر أيد كما تطبخ اكارع الغنم ، ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبيرة وبعض الاطراف مطبوخاً بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الاحصاء

وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون النـاس ووقع فى حبالتهم شيخ كتبى بدين ممن يبتاعون الكتب فأفلت بجريعة الذقن

وكذلك بعض أقوام من جامع مصر وقع فى حبالة قوم آخرين بالقرافة

فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص وأما من خرج عن أهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير

وحكى لى من أثق به أنه اجتاز على امرأة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهى تأكل من افخاذه فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها وكثيراً ما يدعى الآكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك . ورؤى مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت انما هو ولد ابنتى وليس بأجنبى منى ، ولأن آكله أنا خير من أن يأكله غيرى ، واشباه هذا كثير جداً حتى انك لاتجد احداً فى ديار مصر الأ وقد رأى شيئاً من ذلك حتى أرباب الزوايا والنساء فى خدورهن

ومما شاع أيضاً نبش القبور واكل الموتى . وبيع لحومهم وهذه البلية التى شرحناها وجدت فى جميع بلاد مصر ليس فيها بلد إلاّ وقد اكل فيه الناس أكلاً ذريعاً من اسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحى

وخبرنى بعض أصحابى وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك ، وأعجب ما حكى لى أنه عاين روس خمسة صغار مطبوخة فى قدر واحدة بالتوابل الجيدة ، وهذا المقدار فى هذا الاقتصاص كان فانى وان كنت قد اسهبت اعتقد أنى قد قصرت ، وأما القتل والفتك فى النواحى فكثير فاش فى كل فج ، ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية . وقد كان بطريق الفيوم ناس فى مراكب يرخصون الأجرة على الركاب ، فاذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا اسلابهم وظفر الوالى منهم بجماعة فمثل بهم وأقر بعضهم عند ما أوجع ضرباً أن الذى خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار . وأما موت الفقراء هزالاً وجوعاً فأمر لا يحيط علمه الا الله سبحانه

وتعالى ، وانما نذكر منه كالانموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر

فالذى شاهدنا بمصر والقاهرة ، وما يليهما أن الماشى أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت أو من هو فى السياق أو على جمع كثير بهذه الحال ، وكان يرفع من القاهرة خاصة الى الميضاة كل يوم ما بين ماية الى ٥٠٠

وأما مصر فليس لموتاها عدد ويرمون ولا يوارون وأما من عجزوا عن رميهم فبقوا فى الأسواق وبين البيوت والدكاكين وفيها ، والميت منهم قد تقطع والى جانبه الشواء والخباز ونحوه

وأما الضواحى والقرى فانه هلك أهلها قاطبة الى ما شاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم إلاّ الأمهات والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك ، ومع هذا أيضاً فلم يبق فيها إلاّ تحلة القسم ، وأن المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ويجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين بعضهم قد ورم وبعضهم طرى وربما وجد فى البيت أثاثه وليس له من يأخذه

حدثنى ذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضد به قول الآخر ، قال أحدهم دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا فى الأرض ولا فى السماء فتخللنا البيوت فالفينا أهلها كما قال الله عز وجل جعلناهم حصيداً خامدين ، فنجد ساكن كل دار موتى فيها الرجل وزوجه وأولاده . قال ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكر لنا أنه كان فيه أربع ماية دكان للحياكة فوجدناها كالتى قبلها فى الخراب وأن الحايك فى بير حياكته ميت وأهله موتى حوله ، فحضر لى قول الله تعالى ان كانت الاّ صيحة واحدة فاذا هم خامدون . قال ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه كالذى قبله ليس به أنيس وهو مشحون بموتى أهله . قال واحتجنا الى الاقامة به لأجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم قال ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع فى لحوم أهلها

ومن عجيب ماشاهدت انى كنت يوماً مشرفاً على النيل مع جماعة فاجتاز علينا فى نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتقصد رؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر ، وفى غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا اشلا الموتى فى الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بانا يش الفصل وخبرت عن صياد بفرضة تنيس أنه مر به فى بعض نهار أربع ماية غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح

وأما طريق الشأم فقد تواترت الأخبار انها صارت مزرعة لبنى آدم بل محصدة وانها عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان كلابهم التى صحبتهم من منجلاهم هى التى تأكل فيهم

وأول من هلك فى هذا الطريق أهل الحوف عند ما انتجعوا الى الشأم وانتشروا فى هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ، ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن ، وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخرسان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا فى البلاد كل ممزق

وكثيراً ما كانت المرأة تملص من صبيتها فى الزحام فيضورون حتى يموتوا

وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة . وعرض علىّ جاريتان مراهقتان بدينار واحد ورأيت مرة أخرى جاريتان احداهما بكر ينادى عليهما بأحد عشر درهما

وسألتنى امرأة أن اشترى ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم ، فعرفتها أن ذلك حرام فقالت خذها هدية . وكثيراً ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم . وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم الى العراق واعماق خراسان وغير ذلك بموتهم أجمعين فارسل عوضهم فمات اكثرهم هكذا مرات فى عدة جهات

وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعة على سبع ماية جنازة وان تركة واحدة انتقلت في مدة شهر الى أربعة عشر وارثاً

ومن عجيب الكائنات فى هذه المدة أنه ولد مولود أبيض الشعر ورأيته

وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها وناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زها عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة ، وربما وجد فيها نفر وربما لم يوجد ، وأما مصر فخلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلاً ، بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة فى زحمة من الناس، حتى أن الرباع والمساكن والدكاكين التى فى سرة القاهرة وخيارها اكثرها خال خراب

ولم يبق لأهل المدينة وقود فى تنانيرهم وأفرانهم وبيوتهم الا خشب السقوف والأبواب والزروب ، ومما يقضى منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا محدودين سعدوا فى دنياهم هذه السنة ، فنهم من أثرى بسبب متجرة من القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط

واما خبر النيل فى هذه السنة فانه احترق فى برمودة احتراقاً كثيراً ، وصار المقياس فى أرض جرز وانحسر الماء عنه نحو الجيزة ، وظهر فى وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات ابنية وتغير الماء فى ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ثم انكشف أمره عن خضرة طحلبية كلما تطاول الأيام ظهرت وكثرت كالتى ظهرت فى ابيب من السنة الحالية ، ولم تزل الخضرة تتزايد الى آخر شعبان ثم تناقصت الى أن ذهبت وبقى فى الماء أجزاء نباتية منبثة فقط وطاب طعمه

وريحه ، ثم أخذ فى رمضان ينمو وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه فقاس فيه ابن أبى الرداد قاع البركة فكان ذراعين ، وأخذ فى زيادة ضعيفة أضعف من السنة الخالية ، ولم يزل فى زيادة ضعيفة الى ثامن ذى القعدة ، وهو السابع عشر من مسرى ، فزاد أصبعاً ثم وقف ثلاثة أيام ، فأيقن الناس بالبلا واستسلموا للهلكة . ثم أخذ فى زيادات قوية أكثرها ذراع الى ثالث ذى الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمس عشرة ذراعاً وست عشرة أصبعاً ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ، ومس بعض البلاد تحلة القسم فكأنما زارها طيف خياله فى الحلم

وانما انتفع به ما كان فى البلاد مطمأناً فاروى المنخفضات كالغربية ونحوها غير أن القرى خالية عن فلاح أو حراث أصلاً ، فهم كما قال الله تعالى فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم ، وانما أرباب الجدات يجمعون شذاذهم ويلتقطون أفرادهم وقد عز الحراث والبقر جداً حتى بيع الثور الواحد بسبعين ديناراً والهزيل بدون ذلك

وكثير من البلاد يحسر عنها الماء بغير حقه ولغير وقته ، اذ ليس بها من يمسك الماء ويحبسه فيها فتبور لذلك مع ريها وكثير مما روى يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه ، وكثير مما زرع اكلته الدودة . وكثير مما سلم منها اصوى وعطب ، ونهاية سعر القمح فى هذه السنة خمسة دنانير الأردب والفول والشعير بأربعة دنانير ، وأما بقوص والاسكندرية فبلغ ستة دنانير

ومنّ الله سبحانه برجوع الفرج وهو المتيح للخير بمنه وجوده

وفى حوادث سنة ثمان وتسعين وخمس ماية ، دخلت هذه السنة والأحوال التى شرحناها فى السنة الخالية على ذلك النظام الى زها نصفها فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب

وحكى أنه كان فى مصر تسعماية منسج للحصر فلم يبق الا خمسة عشر منسجاً ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون فى المدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف ، فانهُ لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقى من الحصيرين أو أقل من ذلك

وأما الدجاج فعدم رأساً ، لولا أنهُ جلب منه شىء من الشأم . وحكى لى أن رجلاً مصرياً شارف الفقر فألهم أن اشترى من الشأم دجاجاً بستين ديناراً وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثمانى ماية دينار ولما وجد البيض بيع بيضه بدرهم ثم بيضتين ثم ثلثا ثم أربعا واستمر على ذلك . وأما الفراريج فبيع الفروج بماية درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعداً

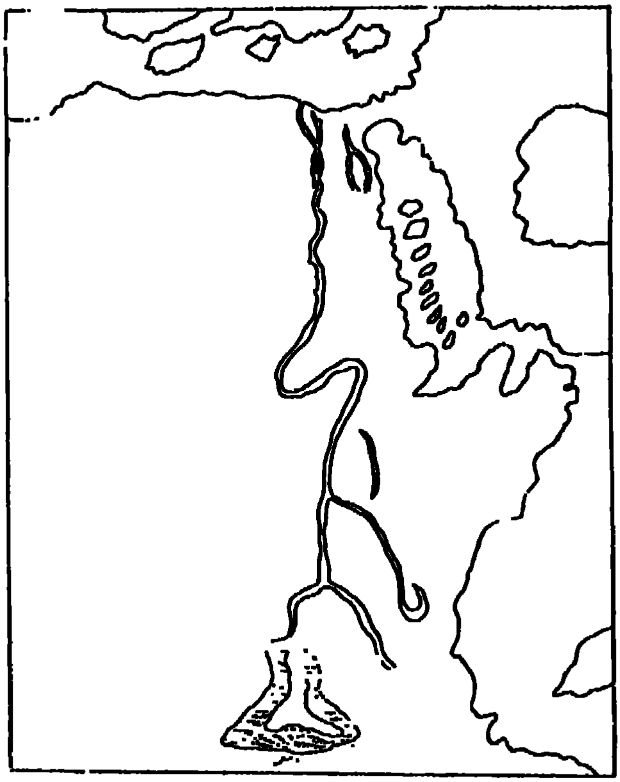
والذى دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كفن . وجرى له اسم فى الديوان وضمته الميضاة فى مدة اثنين وعشرين شهراً أولها شوال فى سنة ست وتسعين رجب فى سنة ثمان وتسعين ماية الف نفس واحد عشر الفاً إلاّ آحاداً وهذا مع كثرته نزر فى جنب الذين هلكوا فى دورهم وفى أطراف المدينة وأصول الحيطان، وجميع ذلك نزر فى جنب من هلك بمصر وما تاخمها ، وجميع ذلك نزر فى جنب من أكل فى البلدين ، وجميع ذلك نزر جداً فى جنب من هلك واكل فى سائر البلاد والنواحى والطرقات وخاصة طريق الشأم فانه لم يرد احد من ناحيته ، فسألته عن الطرق الا ذكر منها مزرعة بالأشلا والرمم وهكذا ما سلكته منها ، ثم انه وقع بالفيوم والغربيـة ودمياط والاسكندرية موت عظيم ووباء شديد ولا سيما عند وقت الزراعة فيموت على المحراث الواحد عدة فلاحين . حكى لنـا أن الذين بذروا غير الذين حرثوا كذلك الذين حصدوا

وباشر بعض الرؤساء زراعة فأرسل من يقوم بها ثم بعث يسأل عنهم

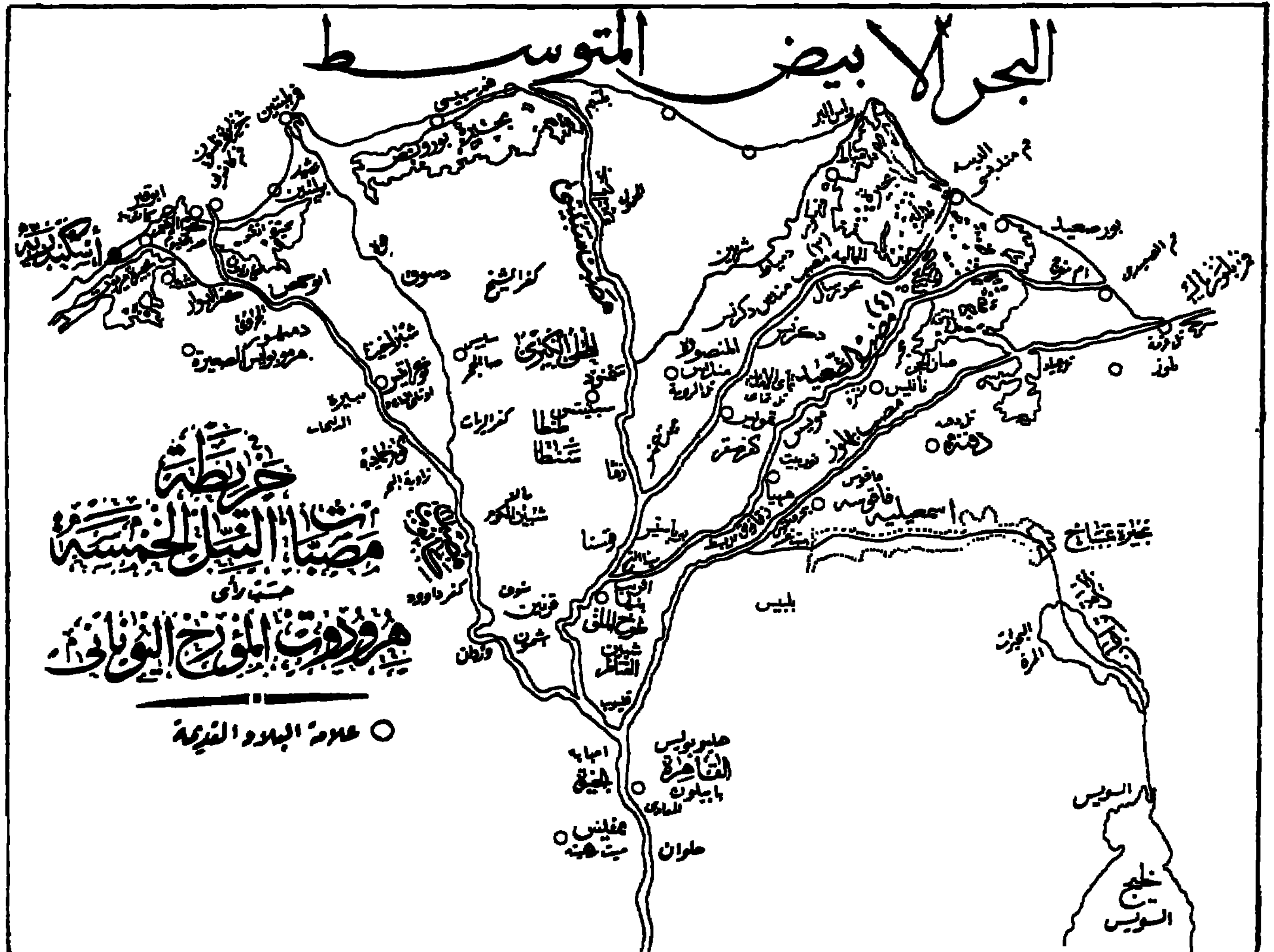
فجاء الخبر بموتهم اجمعين ، فأرسل عوضهم فمات أكثرهم هكذا مرات فى عدة مرات

وأعجب من جميع ما اقتصصناه أن الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على أصنام شهواتهم لا يرعوون منغمسون فى بحر ضلالاتهم كأنهم هو المستثنون فمن ذلك اتخاذهم بيع الأحرار متجراً ومكتسباً ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى أن منهم من يزعم أنه افتضّ خمسين بكراً ومنهم من يقول سبعين

وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعة على سبع مائة جنازة وان تركة واحدة انتقلت فى مدة شهر الى أربعة عشر وارثاً . الخ »



رسم مجرى النيل حسب خريطة بطليموس المحفوظة بدير جبل أوتوس منقول من كتاب عنوانه (The Nile question) وضع السر (Hurry Johstone)



البحر الابيض المتوسط
خريطة
مصبات النيل الخمسة
حسب رأى
هيرودوت المؤرخ اليونانى
علامة البلاد القديمة
أسكندرية
بورسعيد
دمياط
المنصورة
المحلة الكبرى
طنطا
القاهرة
الجيزة
بلبيس
السويس
خليج السويس
حلوان

مصبات النيل : حسب عقيدة القدماء

لأحصاء هذه الجداول خطأ غير مقصود وان تناوله الناقلون خلفاً عن سلف منذ العصور الأولى . وخلاصة القول ان مصبات النيل (أى جداوله) سبع . وممن سرى الى رواياتهم الخطأ فى احصائها الفيلسوف الشهير سنيك

وقد قال المؤرخون القدماء أن مصبات النيل سبع ويظهر أن مصباته الأصلية اثنان ، وهما الفرعان اللذان ينقسمان تحت مدينة القاهرة ، ومنهما تفرع باقى المصبات فى عهد الفراعنة توصلاً لإرواء المسافات الكبيرة التى كانت محرومة من الرى والزرع ، وباقتضاء العمران توسعوا فى الاستفادة من هذه الفروع ، فتدفقت منها الخيرات على العباد والبلاد ، وشكروا الأيدى العاملة التى قامت بهذه المشروعات النافعة . والمصبان الطبيعيان المذكوران هما الكانوبى (Canopique) فى الجهة الغربية والبلوزى (Pelissiane) فى الجهة الشرقية

وقال هيردوت (فى كتابه الثانى الفصل ١٧ فى القرن الرابع ق م) إن مصبات النيل من الجهة الشرقية الى الجهة الغربية من جهة البحر خمس وهى : البلوزى (Pelusiane) والصعيدى (Saitique) والمنديزى (Mendésique) والسبنيتى (Sebennytique) والكانوبى (Canopique)

وقال سترابون (فى كتابه ١٧ الفصل الأول فى القرن الأول ق م) أن مصبات النيل من الشرق الى الغرب سبع وهى : البليزى والتانيتى (Tanitique) والمنديزى (Mendésique) والفاتنيتى (Phatnitique) والسبنيتى (Sebennytique) والبلبيتى (Bolbitique) والكانوبى

وقال ابن الحكم من علماء القرن الثالث للهجرة ان مصبات النيل سبع ، ولم يتفق مع العلماء الا فى العدد فقط وهى : (١) بنها (٢) الفيوم (٣) ممفيس (٤) سردوس (٥) دمياط (٦) سخا (٧) اسكندرية

مقـــايـيس النيل

فى عهد الفراعنة

أوجد الفراعنة مقاييس نظامية فى كثير من المناطق للرجوع اليها فى موازنة المياه وتوزيعها بين الأقاليم توزيعاً ثابتاً يفى بحالتها الطبيعية، وبنوا هذه المقاييس على نسبة اختبارية فى فصول السنة كلها، لتكون هذه المقاييس ميزاناً صحيحاً حتى اذا طرأت بعض العوارض فى منطقة امكنهم حصر ميزانيات الماء فيها، فلا يحدث من انحدارها القهرى اخلال بالنظام يؤذى المناطق المجاورة، وهذه الاختبارات تدل على حذق وفطنة

قال سترابون (فى كتابه بالفصل ١٧ العدد ١) كان لدى قدماء المصريين مفتشون فنيون يجيبون الناس والحكام عن كل الملاحظات التى تطلب منهم بتواريخ بدء الفيضان ونسبته، لأن لديهم علامات ثابته (أى المقاييس) يرجعون اليها فى معرفة ذلك قبل أوان الفيضان، وانه يوجد بمدينة بيلاق مقياس يشبه مقياس مدينة ممفيس. والمقياس المبنى من الحجر على شاطىء النيل هو عبارة عن بئر تتوازن فيه درجة المياه ارتفاعاً وانخفاضاً على مقدار مياه النهر. وقد نقشوا فى جوانب البئر أشارات تدل على درجات الفيضان فى كل عام. وقد أيدت الاكتشافات الأخيرة رأى هذا المؤرخ. وعثر علماء البعثة المصرية على مقياس مدينة بيلاق وزاره جومار قبل ترميمه وقال فى وصفه ما يأتى: يتألف هذا المقياس من سطح مربع ومنه ينزل بسلم الى ٨٥ درجة وينقسم سطحه الى ثلاثة أجزاء وفيه باب يفتح الى النيل لايمكن النظر اليه الا وقت انخفاض المياه، وجدرانه المتطرفة مبنيـة بقطع افقية من الحجر

الجرانيت وقد صالت يد القدم على النقوش الهيرو غليفية ولم يبق من الآثار اليونانية فيه الا النذر القليل

قال هليودوركان فى مدينة سيين مقياس للنيل دقيق فى الصنع والمزية الفنية فى أوائل استعمارهم لمصر، فأقاموا فيها المعاقل والحصون لتحفظ الحدود الملاصقة لبلاد الحبش، والى هذا يرجع رأى من قال ان مقياس مدينة سيين هو المقياس الذى كان فى مدينة بيلاق لأن موقعيهما متقاربان جداً ويسرى الى الظن الخطأ فى الرواية أو نسبة كل مدينة منهما الى اشتمالها على مقياس خاص لها

ويوجد بين الآثار المحفوظة فى المتحف البريطانى نصوص هيروغليفية تثبت أن الملك سنوسرت الثالث صنع فى السنة الثامنة من حكمه بعض اصلاحات فى مقياس بيلاق خلاصتها : « فى السنة الثامنة من الشهر الثالث من فصل الفيضان فى عهد ملك الوجهين البحرى والقبلى سنوسرت الثالث المحبوب من ساتيت (معبوده مدينة بيلاق) الخالد الذكر قد أمر وزيره امنى بعمل باب من مبانى مقياس بيلاق الخ ..)

وقد ذكر مقياس النيل فى كتاب الموتى يقول الميت « أيتها الدار كراو التى يقابلها النيل فى أعلا تاتو حيث يقاس النيل فى ممره، ويقول الميت أيضاً (فى الفصل ١١٠ من كتاب الموتى) « قد وصلت الى أقليم كبير وقت الفيضان» ويتضح من هذه النصوص الدينية أن الميت يقصد مقياس النيل ويعدُّ نفسه سعيداً لكونه قاس الفيضان الذى يجعل مصر مخصبة بمحض الهبة الالهية

ونشر بروكش باشا نقوشاً يرجع تاريخها الى عصر البطالسة خاصة بمقياس النيل الكائن فى مدينة بيلاق ونصها « متى خرج النيل فى وقته من منبعك يكون ارتفاعك فى بيلاق ٢٤ ذراعاً) ووجد العالم جورج داريسى فى مدينة هابو مقياساً للنيل كمقياس بيلاق ومنقوشاً فيه اسم نقتانيبو الأول

أخذ ملوك الأسرة التاسعة والعشرين ، ولم توجد معلومات يستنتج منها درجات الفيضان فى هذا المكان

وقد أندرست بمرور الزمن مقاييس أخرى كانت فى مناطق عديدة بل كان بقرب كل معبد فى مدينة على النيل مقياس خاص بها يستفيد به اهل الجهات فى معرفة درجات الفيضان فى أوائله ونهايته

وقد قال ديودور الصقلى أن مدينة ممفيس كان بها مقياس شهير وأثبت بشأنه العبارة الآتية :

لما كانت مسألة الفيضان الشغل الشاغل عند الملوك المصريين اعتنوا فى بناء مقاييس له ، ومن جملتها مقياس مدينة ممفيس ، وبواسطته كانوا يعرفون درجات الفيضان بالضبط » وقال سترابون أن مقياس النيل الذى فى مدينة بيلاق بنى على نسق مقياس مدينة ممفيس

وقال بروكش باشا العالم الأثرى إنه كان فى مدينة ديوبوليس مقياس خاص بها وكان الفيضان يصل فى مدينة بيلاق الى ٢٨ ذراعاً . وكان مستوى الفيضان سبعة أذرع فى مدينة ديوسبوليس . ووصف المؤرخ بلين آباراً وجد فيها درجات مقسمة خاصة بمقاييس النيل بطريقة مختصرة لأهل البلاد الموجودة بها

وقد عثر سنة ١٨٩٤ على جدار أثرى منقوش فيه احتفال بفيضان النيل بالعبارة الآتية ترجمتها « فى السنة ١٠ فى الشهر الثانى من فصل الصيف جاء النيل ذاخراً. واكتشف المسيو جورج لجران نقوشاً على رصيف الكرنك تبين الجهات التى ابتدأ فيها الفيضان من السنة السادسة من حكم الملك ششنق الأول الى السنة ١٩ من عهد الملك بسامتيك وقال سترابون الجغرافى اليونانى أنه رأى نقوشاً تثبت تعيين مفتشين فنيين كانوا يراقبون زيادة النيل ونقصانه

فى المقاييس وربما كان هؤلاء الأشخاص هم الكتبة المذكورون فى شاهد حجرى محفوظ بمتحف ليد يرجع تاريخه الى الأسرة ١٢ ومنقوش عليه هذا اللقب باللغة المصرية القديمة « الكاتب المنوط بمقياس الفيضان الخ ... »

ذكر مقاييس النيل وزيادته

فى عهد العرب

قال ابن عبد الحكم أول من قاس النيل بمصر يوسف عم وضع مقياساً بمنف ، ثم وضعت العجوز دلوكه ابنة زبّا وهى صاحبة حائط العجوز مقياساً بأنصنا وهو صغير الذرع ومقياساً بإخميم . ووضع عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان وهو صغير ، ووضع أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياساً بالجزيرة وهو اكبرها . قال يحي بن بكير أدركت القياس يقيس فى مقياس منف ويدخل بزيادته الى الفسطاط

وقال القضاعىّ كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عم وبنى مقياساً بمنف وهو أول مقياس صنعه عم ، وقيل ان النيل كان يقاس بارض علوة الى أن بنى مقياس منف ، وان القبط كانت تقيس عليه الى أن بطل . ومن بعده دلوكه العجوز بنت مقياساً بأنصنا وهو صغير الذراع ، ومقياساً آخر بإخميم وهى التى بنت الحائط المحيط بمصر ، وقيل إنهم كانوا يقيسون الماء قبل أن يوضع المقياس بالرصاصة ، فلم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيسارية الاكسية ومعالمه هناك الى أن ابتنى المسلمون بين الحصن والبحر أبنيتهم الباقية الآن ، وكان للروم أيضاً مقياس بالقصر خلف الباب يمنة فى مدخله فى داخل الزقاق أثره قائم الى اليوم وقد بنى عليه وحوله ثم بنى عمرو بن العاص عند

فتحه مصر مقياساً بأسوان ثم بنى بموضع يقال له دندرة ثم بُنِىَ فى أيام معاوية مقياس بأنصنا فلم يزل يقاس عليه إلى أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان وكانت منزله ، وكان هذا المقياس صغير الذراع ، فأما المقياس القديم الذى بنى فى الجزيرة فالذى وضعه أسامة بن زيد ، وقيل إنه كسر فيه ألفى أوقية وهو الذى بنى بيت المال بمصر ، ثم كتب أسامة ابن زيد التنوخىّ عامل خراج مصر لسليمان بن عبد الملك يبطلانه ، فكتب اليه سليمان بأن يبنى مقياساً فى الجزيرة فبناه فى سنة سبع وتسعين ، ثم بنى المتوكل فيها مقياساً فى أول سنة سبع وأربعين ومائتين فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى على مصر وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد ، وأمر بأن يعزل النصارى عن قياسه فجعل يزيد بن عبد الله على المقياس أبا الردّاد المعلم واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الردّاد المؤذّن كان يقول العمّى أصله من البصرة قدم مصر وحدّث بها وجُعل على قياس النيل ، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر ، فلم يزل القياس من ذلك الوقت فى يد أبى الردّاد وولده الى اليوم وتُوفىّ أبو الردّاد سنة ست وستين ومائتين ، ثم ركب احمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومائتين ومعه ابو أيوب صاحب خراجه وبكار بن قتيبة القاضى فنظر الى المقياس وأمر باصلاحه وقدر له الف دينار فعمرّ وبنى الخازن فى الصناعة مقياساً وأثره باق لا يُعتمد عليه

وقال يزيد بن ابى حبيب ان موسى عَم دعا على آل فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلآء ، فطلبوا الى موسى أن يدعو الله فدعا الله رجاء أن يؤمنوا وذلك فى ليلة الصليب ، فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الساعة ستة عشر ذراعاً ، فاستجاب الله لعمر بن الخطاب كما استجاب لبنيه موسى عم

قال القضاعي ووجدت في رسالة منسوبة الى الحسن بن محمد ابن عبد المنعم ، قال لما فتحت العرب مصر عرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده في مقياس لهم فضلاً عن تقاصره ، وأن فرط الاستشعار يدعوهم الى الاحتكار ويدعو الاحتكار الى تصاعد الأسعار لغير قحط ، فكتب عمر الى عمرو يسأله عن شرح الحال ، فأجابه انى وجدت ما تروَى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربع عشرة ذراعاً ، والحد الذى يروَى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ست عشرة ذراعاً ، والنهايتان المخوفتان في الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنتا عشرة ذراعاً في النقصان ، وثماني عشرة ذراعاً في الزيادة ، هذا والبلد في ذلك الوقت محفور الأنهار معقود الجسور عند ما تسلموه من القبط وخميرة العمارة فيه ، فاستشار عمر أمير المؤمنين عليًّا رضي الله عنه في ذلك ، فأمره أن يكتب اليه أن يبنى مقياساً ، وان ينقص ذراعين على اثنتى عشرة ذراعاً وأن يقرّ ما بعدها على الأصل ، وان ينقص في كل ذراع بعد الست عشرة ذراعاً أصبعين ففعل ذلك وبناه بحلوان فاجتمع له بذلك كلّ ما أراد من حل الأرجاف وزوال ما منه كان يخاف بأن جعل الاثنتى عشرة ذراعاً أربع عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعاً فجعلها ثمانياً وعشرين من أولها الى الاثنتى عشرة ذراعاً يكون مبلغ الزيادة على الاثنتى عشرة ثمانياً وأربعين إصبعاً ، وهي الذراعان وجعل الأربع عشرة ست عشرة والست عشرة ثماني عشرة والثماني عشرة عشرين .

قال القضاعي وفي هذا الباب نُظر في وقتنا لزيادة فساد الأنهار وانتقاض الأحوال . وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أولها الى آخرها أربعة وعشرون أصبعاً كل ذراع ، والمقاييس الاسلامية على ما ذكر منها

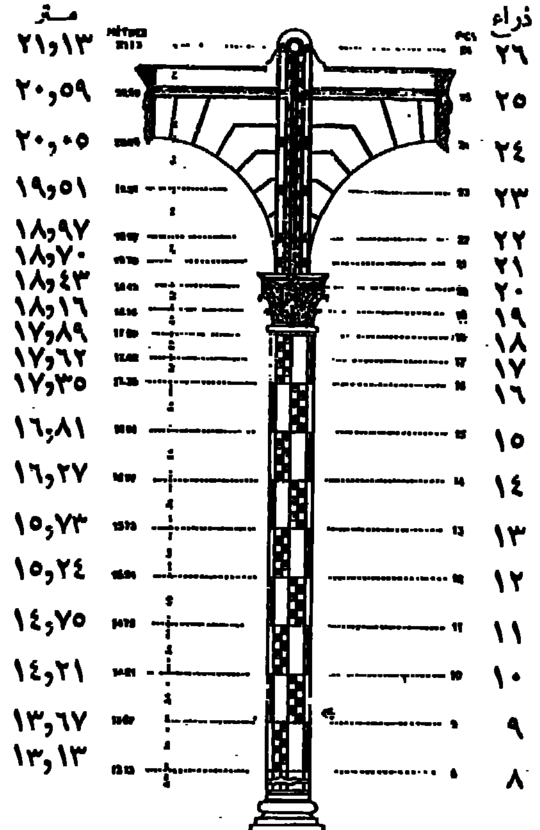
المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخىّ بالجزيرة وهو الذى هدمه الماء وبنى المأمون آخر بأسفل الأرض بالبشرودات ، وبنى المتوكل آخر بالجزيرة وهو الذى يقاس عليه الماء الآن وقد تقدم ذكره

قال بن عفير عن القبط المتقدمين اذا كان الماء فى اثنى عشر يوماً فى مسرى اثنتى عشرة ذراعاً فهى سنة ماء وإلا فالماء ناقص واذا تم ست عشرة ذراعاً قبل النوروز فالماء يتم فاعلم ذلك

وقال أبو الصلت وأما النيل وينبوعه فهو من وراء خط الاستواء من جبل هناك يُعرَف بجبل القمر فانه يبتدئ بالتزيّد فى شهر أبيب ، والمصريون يقولون إذا دخل أبيب كان للماء دبيب وعند ابتدائه فى التزيد يتغير جميع كيفياته ويفسد ، والسبب فى ذلك مروره بنقائع مياه آجنة فيجتابها معه الى غير ذلك مما يحتمله ، فاذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعاً وزادت السادسة عشر أصبعاً واحداً كُسر الخليج ولكسره يوم معدود ومقام مشهود ومجتمع غاص يحضره العامّ والخاصّ . فاذا كسر فتحت الترع وهى فوهات الخلجان ، ففاض الماء وساح وغمر القيعان والبطاح وانضم الناس الى أعالى مساكنهم من الضياع والمنازل وهى على آكام ورُبّى لا ينتهى الماء اليها ولا يتسلط السيل عليها فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحراً غامر الماء بين جبليها ريثما يبلغ الحد المحدود فى مشيئة الله عز وجلّ له ، وأكثر ذلك يحوم حول ثمانى عشرة ذراعاً ثم يأخذ عائداً فى صبه الى مجرى النيل ومسربه فينضب أولاً كان من الأرض عالياً ويصير فيما كان منها متطأمنا فيترك كل قرارة كالدرهم ويغادر كل تلعة كالبرْد المسهّم

وقال القاضى أبو الحسن علىّ بن محمد الماوردىّ فى كتاب الأحكام السلطانية وأما الذراع السوداء فهى أطول من ذراع الدور باصبع وثلثى أصبع وأول من

وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد قدرها بذراع خادم اسود كان على رأسه قائمًا وهى التى تتعامل الناس بها فى ذراع البزّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر والمقياس عمود رخام أبيض مثمّن فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا كل ذراع مفصّل على أربعة وعشرين قسماً متساوية تعرف بالأصابع ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى فانها مفصلة على ثمانية وعشرين أصبعاً كل ذراع .



Colonne du Mikias, d'après le livre de Kassem bey, The Nile Gauge at Roda.

رسم عمود المقياس مأخوذ من كتاب عنوانه (The Nile Gauge at Roda)
وضع قاسم بك

« المقياس بناء على تحقيقات مهندسى العصر الحالى »

إن مقياس الروضة هو عبارة عن عمود من الحجر مقسم الى أذرع وقراريط موضوع بوسط بئر مربعة من البناء طول ضلعها نحو الأربعة أمتار، وهو مقام بالنهاية الجنوبية لجزيرة الروضة تجاه مصر القديمة .

أما بناء هذا المقياس فكان فى سنة ٨٦١م كما قرره المستر ولكوكس فى كتابه « الرى المصرى » ، وقد وضع الفرنسيون حين دخولهم لهذه البلاد فى سنة ١٧٩٨ واحتلالهم اياها سنتى ١٧٩٩ و ١٨٠٠ وخروجهم منها فى سنة ١٨٠١ تاجا مزخرفا فوق عمود المقياس محفور عليه (La République Française) (أى الجمهورية الفرنساوية — السنة التاسعة من تأسيس الجمهورية) ، ولكن بعد مبارحة الفرنسويين قد أسقط هذا التاج فى البئر ووضع بدله قاويس من خشب القرو الثقيل فوق العمود ثبت من طرفيه بحائطى البئر . هذا ويظهر من فحص وضع القاويس المذكور بالنسبة لقمة عمود المقياس أن هذا العمود لا بد وأن يكون هبط بمقدار ١٩,٠ فى خلال القرن الماضى

ومما يشاهد فى هذا المقياس أن التقاسيم المنقوشة على عموده ليست ظاهرة جلياً . أما مقادير الأذرع فهى واحدة بطول العمود كله انما الأرصاد اليومية تجرى لحد الذراع الثانية عشرة فقط على العمود وما تجاوز ذلك يرصد على تقاسيم أخرى على مدرج من الحجر بداخل البئر وليس ارتفاع درج هذا المدرج مقسماً تقسيماً متساوياً بل أن الأذرع التى تحت ١٦ ذراعاً تساوى الواحدة منها ٥٤,٠ من المتر تقريباً والتى بين ١٦ ذراعاً و ٢٢ ذراعاً تساوى الواحدة منها ٠٢٧,٠ من المتر تقريباً . أو نصف ذراع ثم ما فوق ٢٢ ذراعاً فطول الذراع الواحدة ٥٤,٠ من المتر

وقد أوضح المغفور له الكولونيل روس سبب هذا التقسيم حيث قال : إنه حينما بنى المقياس بالروضة كان المعتاد فتح جميع ترع الرى عند بلوغ تسوية مياه النيل ١٦ ذراعاً بهذا القياس ، وكان يعقب فتح الترع ضرورة تحويل جانب عظيم من مياه النهر لها . ولهذا السبب كان يقدر أن زيادة ذراع واحدة باسوان يقابلها نصف ذراع فقط بالروضة وكان يستمر على هذا التقدير حتى تبلغ الزيادة بالروضة ٢٢ ذراعاً أى لحد تمام ملء الحيضان وسد أفمام الترع . وبعد ذلك كان يقدر أن كل زيادة تحدث باسوان كانت تأتى بتمامها لمقياس الروضة ولهذا كانت ارصاد المقياس بالأذرع الكاملة بعد تجاوز تسوية مياه النيل ٢٢ ذراعاً

أما فى أيامنا هذه فنظراً لكون مياه النيل لا تمر بترع الحياض بمقدار كاف الا عند بلوغ تسويتها بمقياس الروضة ١٩ ذراعاً فلا فائدة من اختلاف أطوال الأذرع بل ربما أوجب الالتباس

ومما يحسن ايراده هنا أن لا فائدة من دلالات مقياس الروضة فى فصلى الشتاء والصيف لأن الرد الناتج من الحجز على القناطر الخيرية اثناء هذين الفصلين تجعلها غير دالة على حالة مياه النيل بالتمام[1]

هذا وفى سنة ١٨٨٦ م قد وضع السير وليم جارستن لما كان مفتشاً لرى القسم الأول مقياساً آخر مقسماً بالأمتار داخل بئر المقياس الأصلى وجاء رصده يومياً من ذاك الحين مع المقياس الأصلى

ومما عساه يكون فيه فائدة للعموم العلم بأنه لم تعمل مباحث لحد الآن للعلم بالنهاية السفلى لتقاسيم المقياس وانما قد ربطت بواسطة الميزانية هذه التقاسيم بسطح البحر المالح الأبيض المتوسط فوجد أن منسوب ٦ أذرع

(١) ابتداء الحجز على القناطر الخيرية كان من سنة ١٨٨٤

هو ١٢,٠٥٢٥ فوق سطحه . هذا وكان فى عزم السير وليم جارستن عند ما وضع المقياس المترى أن يزيل القاويس الموضوع فوق عمود المقياس الذراعى ويرد التاج الذى كان صنعه الفرنسيون الى محله الأصلى

ورسم مقياس الروضة صفحة ٨٧ ينبئنا بما كان عليه من يوم انشائه الى الآن وعلى الزيادة التى استلزم الحال وضعها فوق عمود المقياس مقسمة على مثال تقسيمه الأصلى وعليه وعليها التقسيم المترى الحديث المنوه عنه بهذا

الضرائب المصرية القديمة

وجد منقوشاً على معبد ادفو ديباجة كأنها عن لسان النيل تقدم أقاليم مصر الى المعبود حورس الكبير إله أدفو بما معناه : « جئت اليك أيها المعبود العظيم استعرض تحت بركاتك جميع الأشياء والمحاصيل والمبانى والمعاهد ، وخدمة الأماكن المقدسة القائمين بواجباتهم الدينية ، معربين بمظاهر أفراحهم المتنوعة واعيادهم المستديمة ، اعترافاً بان النيل الذى يستمد فيضه من المعبود المحترم ادّى واجبه فى إرواء الأرض وانتاج النبات ، فهو وكل ما يستفيد بمنافعه تجود به الأرض على الزراع أثر من بركات هباتك ، فتقبل هداياه لأن فيض النيل هو المساعد على استبقاء الحياة للأجسام ، وبواسطته يستطيع العباد تقديم هداياهم وقربانانهم الى الآلهة ، وبتوالى فيضه تتضاعف عنايتهم باقامة الأفراح وتأدية الشعائر المألوفة ، شكراً لهذه النعم ، وبقبولك هديته تنبث فى الشعب الشجاعة والحركة الطيبة . فاليك نضرع فى هذا الاحتفال وبك نتمنى دوام الفيض بالبركات » . ومن هذا المأخذ يتضح أن رخاء البلاد لايكون إلا بتوفر المياه وموازنتها هى الأساس الأول فى ترتيب المنافع واقتسامها بين الشعوب ،

وتقدير المكافأة من الشعب الخاضع للهيئة الحاكمة المسيطرة بالنظامات على النيل والتجارة وتعليم الشعب والدفاع عن البلاد . ومن هذا أيضاً ارشدنا التاريخ الى أن الضرائب تفرض على الأراضى الزراعية بنسبة درجتها فى الخصوبة ووفرة المحاصيل ، لأن بالضرائب تستطيع الحكومات تنظيم الشؤون العامة جهد استطاعتها وتبذل عنايتها فى ترقية الأحوال باقتضاء العصور وتطورات الأدوار العمرانية

وقد كان التعامل فى السابق جاريا عن تبادل العروض التجارية ، والمحاصيل بنسبة اصطلاحية ، ألفوا قبولها فيما بينهم باعتبار أن الأردب القمح يعادل كذا من الأقمشة ، ويعادل كذا من باقى المطعومات وأدوات المبانى ونحوها

فكان الفلاح يدفع للصيارف مقادير من المحاصيل على نسبة زراعته ، وصاحب الأغنام يؤدى عدداً منها بنسبة عدد أغنامه وهكذا .

وكان بعض الملوك يحمل علاوة على تقدير الضرائب بأنواعها بالأسلوب السالف ذكره قيام بعض القرى والمدائن بتموين طوائف من المستخدمين الذين يكلفون بتنفيذ نظامات الرى ، والمحافظة على الترع والجسور ، وتطهير الجداول ومؤاساة الذين يؤسرون فى الحروب بما يحتاجونه من الطعام الى أن يتوفر لديهم من كسب أيديهم ما يكفى باحتياجاتهم

والقرى التى كانت لاتستطيع النفقات لاولئك الموظفين ، كانوا يكلفون أفراداً منها بما يناسب أحوالهم من هذه الأعمال . وجاء فى التوراة أن فرعون كان يسخر قبائل بنى اسرائيل فى هذه الشؤون

وكان عدد المكلفين لتحصيل الخراج كثيراً جداً . والقصد من كثرتهم تسهيل الحصول على ما يمكن فى أيدى المزارعين ليسهل على المحصلين توريد ما جمعوه الى الأماكن الحكومية التابعة لها مناطقهم بأيسر مستطاع ،

باعتبار أن الكميات التى تجبى يجب عرضها للمعاملات التجارية ، حتى لا تزدحم بها المخازن الحكومية ، ويترتب على تراكمها تعرض البعض منها الى التلف ، أو أن يؤدى ذلك الى شبه احتكار فى المطعومات ونحوها ، فكانت وجهة الملوك فى هذا الوقت سمة الرأفة بالطبقات الفقيرة ، وأن من صالح هذه الطبقات تسهيل السبيل أمامها فى موارد الارتزاق وأوجه الكسب

وكان عمال الخراج يدعون باللغة المصرية القديمة (ونو) وفى عهد الدولة الحديثة (سنو) وبالقبطية (سون) أى جابى خراج المزارعين وكان تقدير الخراج بعد مقياس النيل ويتم تحصيله قبل تمام الفيضان ، اذ كانوا بحلوله يمتنعون عن تحصيل الضرائب وكانت أعمال الجباية وتحديد مقادير الضرائب غاية فى الدقة ، ولهذا يلتجىء الجباة الى استعمال وسائل للاخضاع فى دفع ما عليهم . وكان بعض المزارعين يتذمر من الضرائب كلما تجدد ربطها عاماً بعد آخر ، لأنه يظن نفسه مغبوناً فى التقدير بادىء بدء . وعند ما يتأكد أن التقدير جاء طبق ما وصلت إليه التجديدات الفنية بعد مقياس النيل يذعن للأداء . وقد جاء فى بعض الأوراق البردية مثل ورقة أنسطاسى وساليير أن بعض محصلى الأموال كانوا اذا أعياهم الأمر لجأوا الى ضرب الأشخاص بالعصى أو تغطيسهم فى الماء الى أن يدفع المماطل ما يكون متأخراً عليه

وكان تحت أيدى هؤلاء الكتبة المكلفين بجبايات الضرائب وتحصيلها مستخدمون كثيرون بألقاب متنوعة . فنهم من يلقب المكلف بعون الفم ومنهم من يلقب برؤساء الشون أو المخازن . وفى التوراة ما يؤيد ذلك لا سيما فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام .

وكان المعبود خراج آخر فوق خراج الحكومة علاوة ما كانوا يخصصونه من الغنائم والأسلاب الحربية ، وهذا خلاف الهدايا التى كان يقدمها الشعب

لخدمة المعابد . وكان الكاهن يلقب عندهم رئيس شُوَن امون ووكيل خزانته

وكان الشعب المصرى يدفع العشر للمعبود . ومن المؤرخين من كان يظن أن أداء هذا العشر من مخترعات الشعب الاسرائيلى ولكن اتضح أنه كان موجوداً فى مصر من الزمن القديم

وقد اكتشف حديثاً شاهد للملك تقثانيبو الثانى ووجد منقوشاً فيه أن الملك بسبب انتصاره على غريمه فى جهات الدلتا وهب لوالدته المعبودة نيت رفع عوائد المكوس التى كانت تدخل خزانته من هذه البلاد

وكان من عاداتهم اذا جاء الفيضان ناقصاً ان يخفض من قيمة الخراج مقدار يعادل نقص الفيضان ، ويؤيد ذلك ما وجد فى بعض النقوش لأمونى أمير الأقليم (مح) فى عهد الملك سنوسرت بما معناه : « لما كان النيل مرتفعاً والمحاصيل جيدة لدرجة ساعدت فى ثروة المزارعين ، لم أفرض عليهم ضرائب جديدة ليكونوا على الدوام فى فرح وشكر » . وهذه الجملة تثبت أنه عند نقص الفيضان يراعى تخفيض الضرائب بقدر هذا النقص ولا يجوز تقرير ضرائب جديدة .

ووجدت فى نقوش أخرى لأمراء أسيوط فى عهد الملك خيتى الأول عبارات عن تاريخه بالمعنى الآتى : يفتخر الملك خيتى الأول بانه أغنى المزارع وساعده على الرفاهية حتى جعله يقتات بالقمح بدلاً من الذرة الذى كان القوت الغالب لعموم المزارعين فى تلك الأدوار

وكانت طريقة الجباية مرتبة على أشهر المحاصيل ، لأن الخراج كان يؤخذ من أجودها ووجد فى بعض النقوش على قبر أمتن الذى كان معاصراً لأحد ملوك الأسرة ٦ ما يؤيد هذه القاعدة وسريان العمل بها الى عصر الأسرة ٢٤

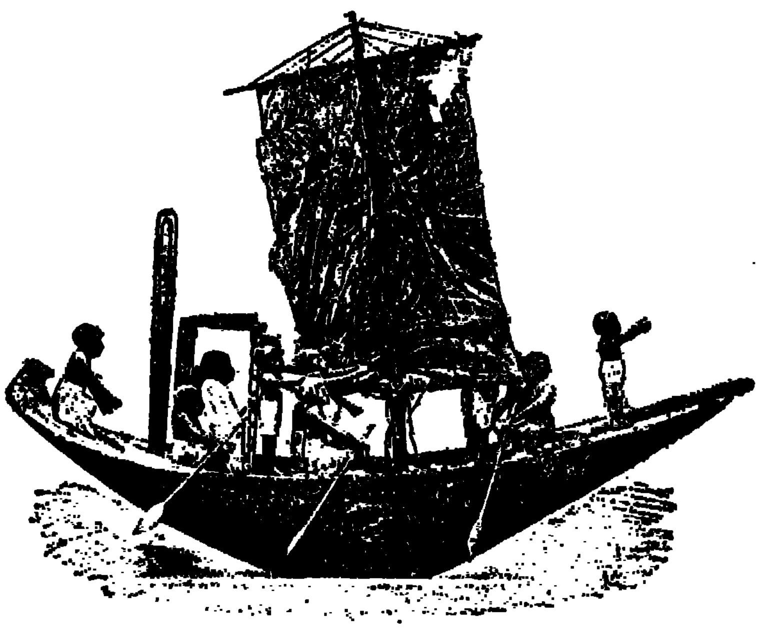
وفى عصر البطالسة والرومان كان الملك يشرف على لجان تقرير الخراج

التى تؤلف فى كل ولاية لتقدير قيمة الأراضى ومحصولاتها ، ووضع الخراج لها بدرجة تطابق حالتها . ويقصد الملوك بهذا الاشراف منع التحيز والمجاملة من أعضاء اللجان لوجهاء الاقاليم فى التقدير ورفع الحيف عن الفقراء فيما يقدر عليهم

وقد عثر سابقاً على رسوم نحاسية بها نقوش مضمونها أن فيضان النيل فى السنين ١٣١و١٤٤و١٥٣ كان حسناً جداً

« المكوس المصرية القديمة على المراكب »

من المكوس التى كانت مفروضة قديماً فى الديار المصرية ضرائب على الملاحة فيفرض على السفن عند مرورها فى مناطق معينة اداء مقدار معين على نسبة ما تحمله كل سفينة عند اجتيازها الممرّ المقرر له الرسم



مركب شراعية مصرية قديمة والأصل بالمتحف المصرى بالطبقة العليا بالقاعة D

ويوجد فى متحف اللوفر قطع حجرية منقوش بها بيان بنقطة محدودة فى مدينة سيين تؤدى المراكب عندها رسوماً مقررة قبل اجتيازها القنطرة ، فكانت القناطر تقفل فى ممر الأنهر والترع ، ولا يصرح لها بعبورها إلاّ بعد اداء الضرائب ومنحها تصريحات المرور

وكانت مدينة بيلاق مرسى لأساطيل النيل . وتوجد أيضاً قطع حجرية أخرى محفوظة بمتحف اللوفر تحت رقم ٢٦ فيها نقوش صريحة بأن المراكب تدفع قبل مرورها مقداراً من الفضة أو المواشى أو الأشياء المصنوعة أو حبوباً او ما يفى بمؤونة العمال فى تلك القنطرة مدة ٢٩ يوماً

« أموال خراج أراضى مصر فى عهد العرب »

ذكر أخبار أموال خراج أراضى مصر وذلك على سبيل الاختصار . قال ابن عبد الحكيم ان أموال الديار المصرية فى زمننا هذا تنقسم على قسمين أحدهما يقال له خراجى ، والآخر يقال له هلالى . فالمال الخراجى ما يؤخذ من الأراضى التى تزرع حبوباً أو نخلاً أو ما تزرع من أصناف الزراعات أو غير ذلك فهذا يسمى خراجياً ، وأما المال الذى يسمى هلالى فقد احدثه جماعة من ولاة السوشيا بعد شىء حتى وصل ذلك فى الاسلام . فكان أول من أحدث الأموال التى هى من وجوه المظالم بمصر أحمد بن محمد بن مدبر لما ولى أمر خراج مصر بعد سنة خمسين ومايتين ، فانه كان من دهاة الناس ومن شياطين الانس : فابتدع فى مصر بدعاً كثيرة فصارت مستمرة من بعده الى الآن ، فحجر على النطرون وكان مباحاً ، وقرر على الكلا الذى ترعاه البهائم مالاً وسماه المراعى ، وقرر على الأسماك التى تصاد من البحر مالاً وسماه المصايد وكانت مباحاً من عند الله للصيادين . وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء

كثيرة فانقسم مال مصر من يومئذ الى خراجى وهلالى ، فلما ولى الأمير أحمد بن طولون أبطل هذه المظالم التى أحدثها أحمد بن محمد بن مدبر وكتب بأسقاطها فى جميع أعمال الديار المصرية . وكانت نحو من مائة الف دينار فى كل سنة . فلما كانت الدولة التى يقال لها الفاطمية أعادوا جميع ما أبطله الأمير أحمد بن طولون من المظالم والمكوس . فلما ولى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر باسقاط تلك المكوس من أعمال الديار المصرية كلها ، وكتب بذلك مرسوماً بخط القاضى الفاضل ، فلما ولى ابنه الملك العزيز عثمان أعاد تلك المكوس التى أبطلها أبوه صلاح الدين . فلما ابتدأت دولة الأتراك وولى الملك المعز ايبك التركمانى وانقرضت دولة بنى أيوب جدد عدة مكوسات وضمانات ، وأخذ أموال التجار . فلما ولى الملك المظفر قطز جدد عدة مظالم عند خروجه الى هلاكو ، وصادر الناس وأخذ على الأملاك والأراضى والنخيل والروس من ذكر وأنثى ، وأحدث من هذه الأنواع أشياء كثيرة من أبواب المظالم ، حتى بلغت هذه المصادر نحو ستماية الف دينار . فلما ولى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، أبطل جميع ما كان أحدثه المظفر قطز من أبواب المظالم كما تقدم ذكر ذلك ، فلما ولى الظاهر برقوق أبطل من المظالم أشياء كثيرة ، مما كان يؤخذ على القمح والشعير والفول ، وما كان يؤخذ على الدبش والحلفا بباب النصر ، وأبطل الأبقار التى كانت ترمى على الناس بالوجه البحرى عند فراغ الجسور ، وأبطل من هذا النمط شيئاً كثيراً . فلما ولى الملك الناصر فرج بن برقوق زاد فى الظلم وتجديد المكوس بواسطة جمال الدين يوسف الاستادار . وهو الذى جدد المكوس على بيع السمك البورى فغلا سعره بالقاهرة وقل وجوده

« خراج مصر فى الاسلام »

قال ابن وصيف شاه : جبى خراج مصر فى الاسلام عمرو بن العاص لما فتحها مكانة اثنى عشر ألف ألف دينار . ثم جبى عبد الله بن أبى سراح فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه خراج مصر أربعة عشر ألف ألف دينار ، فقال الامام عثمان لعمرو بن العاص يا أبا عبد الله درت اللقحة بعدك فقال له عمرو بن العاص نعم درت ولكن أجاعت أولادها . وهذا الذى جباه عبد الله بن أبى السراح ، انما أخذه على الجماجم والروس خاصة دون الخراج ثم من بعد ذلك انحط خراج مصر حتى جباها أسامة بن زيد عامل مصر فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان الأموى اثنى عشر ألف ألف دينار . فلما ولى الأمير احمد بن طولون على مصر وجدها خرابا ، وقد انحط خراجها حتى بقى ثمانماية ألف دينار ، فلا زال يجهد فى عمارتها واصلاح جسورها وقناطرها حتى بلغ خراج مصر فى أيامه أربعة ألف ألف دينار ، وثلثماية الف دينار وجباها ابنه خماروية الف الف دينار مع وجود الرخا حتى قيل بيع فى أيامه كل عشرة أرادب قمح بدينار فبلغ خراج مصر فى أيام الأمير محمد بن طغج الأخشيدى ألف ألف دينار ، فلما قلد جوهر القائد من الغرب فى أيام الخليفة المعز الفاطمى جبا خراج مصر فى أيام الفاطميين الف للف ومايتى الف دينار ، وذلك فى سنة ثمان وخمسين وثلثماية وجباها فى أيام الحاكم بأمر الله ثلاثة آلاف الف دينار وأربعماية الف دينار وذلك فى سنة ستين وثلثماية . قال المسعودى آخر ما اعتبر فى أحوال أراضى مصر فوجد حرثها ستون يوماً ومساحة أرضها ماية الف الف وثمانون الف الف فدان وأنه لا يتم خراجها حتى يكون فيها أربعماية الف وثمانون ألف حراث يلزمون العمل دائما ، فاذا أقيم بها ما ذكرنا تمت عمارتها وكمل

خراجها ، وآخر ما كان بها ماية الف وعشرون الف مزارع فكان بها فى الصعيد الأعلى سبعون الفاً من مزارعين ، وفى أسفل الأرض خمسون الفاً من مزارعين وقد تغيرت أرض مصر الآن تغييراً فاحشاً فى جميع ما كان بها من الأحوال القديمة واختلت اختلالاً فاضحاً فلذلك قلّ خراجها وضعف حال جندها

رأى العلماء فى بحيرة مريس

لما كان يتوقعه أَمِنِمحَتْ الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة من المضار التى يحدثها طغيان الفيضان ، أو تترتب على نقصان الفيضان عن مناسيبه ، أتم مشروعاً عظيماً وذلك بانه رأى غربى مصر واحة أراضيها زراعية (باقليم الفيوم) ممتدة فى الصحراء ، وتتصل ببرزخ فى ناحية يرويها النيل ، وفى وسط هذه الواحة يمتدُّ سهل فسيح فيه أرض واسعة منخفضة ، تمثل وادياً فيه بحيرة طبيعية (المعروفة الآن ببحيرة قارون) وطولها اكثر من ثلاثين ميلاً ، فنفذ مشروعه الجليل بانشاء بحيرة تتصل الى هذا الفضاء ، ومساحتها تضاهى (١٠ ٠٠٠ ٠٠٠) متراً مربعاً لتدخر فيها المياه ، فيستفيد منها الأقليم اذا جاء النيل شحيحاً ، والجانب الأيسر لها يمتد الى البحر الأبيض المتوسط ، فينحدر الى هذه البحيرة كل ما يزيد عن الحاجة فى زمن الفيضان . وما تضيق به هذه المساحة ينصرف الى بركة قارون بواسطة ترعة أُعدت لذلك

فاشتهرت هذه البحيرة وأجلّ مشروعها عظماء الرجال المهندسين وتدعى الآن بحيرة مريس . وكلمة مريس معناها باللغة المصرية القديمة بحيرة . ولما رأى هيردوت هذه البحيرة أطنب فى وصفها وبالفوائد الجمة الناتجة عنها ، وقال إنها كانت تبعد عن النيل مسافة سبعة أيام وكان عمقها خمسين باعاً .

وافترض علماء الآثار نظريات كثيرة عنها . وقال المهندس لينان الذى كان من رجال الرى المعدودين فى عصر الخديوى اسمعيل باشا إن بحيرة مريس هى شرقى أقليم سلسلة جبال ليبيا فى جهة بجيج وبهبجور ذات التلول الممتدة قبلى حوض الغرق ، وقد وافق ليبسيس العالم الأثرى الالمانى على هذا الرأى ولكن العالم ماسبرو لم يؤيده ، وأيدت مذهبه فيها ابحاث مصلحة الرى الحديثة وقال : لا أظن وجوداً لهذه البحيرة . وقد يكون المؤرخ هيردوت لما زار مصر كان مروره بتلك الجهة فى زمن الفيض الذى تكون المياه فيه متدفقة فى حياض البلاد كلها ، ويظنها الناظر بحراً واحداً وتخيل الحواجز بين حياض البلاد ضفة لبحيرة دائمة ، فكتب عنها ما وسعه ظنه بدون بحث ولاتحرى عن الحقيقة ، ولكن اذا كانت هذه البحيرة احدثت كما وصفها الرواة فانها تكون من أعظم المفاخر للعقول البشرية ومن اكبر الآثار لأعاظم الملوك فى عمران البلاد وخصبها

والى المباهاة والاعتراف بمزايا هذه البحيرة تكلم كثير من علماء الغرب فى فوائدها وانها بما يترتب عليها من المنافع فى توازن الرى والقيام بارواء البلاد المجاورة عند نقص الفيضان تعد أعظم شأناً فى الفخر لعظماء الملوك ممن حصروا أعمالهم على تشييد الاهرامات ونحوها ، لأن الاهرامات تدل على عظمة وسطوة فقط ولكن انشاء البحيرات وتمهيد السبل لأصلاحات الرى اكبر فائدة وأحق بالشكران لما يترتب عليها من منفعة بنى الانسان

أعيـــاد النيـــل

عند قدماء المصريين

عرف من الآثار التي استكشفت أن المصريين كانوا يقيمون للنيل احتفالات تشبه الأعياد، ولم يذكر المؤرخون عنها إلاّ شيئاً قليلاً، فمن ذلك ما قاله «بلين» المؤرخ الشهير «ان المصريين فى عصره كانوا يقدمون الغذاء للتماسيح ويلبسونها بعض الثياب في وقت الفيضان ويلقونها فى النيل فتبدو ألوان الثياب الناصعة فى منظر بهيج يروق الناظرين

والذى لا شك فيه أن كل الاحتفالات الخاصة بالمهرجانات التى تقام لفيضان النيل سنوياً كانت بمنزلة فريضة دينية يحترمها الناس كاحترامهم للنيل وكان رؤساء النيل يقيمون لها الزينات المعتادة للأعياد العامة

وجاء أيضاً ما نصه «يستقبل الشعب المصرى بالفرح والسرور ظهور مياه السلسلة المقدسة فابتهاج النفوس وفرحها بمجىء النيل أمر طبيعى، ويجب أن يعدّ فيضانه فى مقدمة الأعياد التى بحلولها يهنىء المصريون بعضهم بعضاً

وجاء فى أنشودة النيل المكتوبة فى ورقة انسطاسى البردية ما نصه «أيها الفيضان المبارك قدمت لك القرابين والذبائح، وأقيمت لك الأعياد العظيمة، وذبحت لك الطيور واقتنصت لتحيتك الغزلان من الجبال، واعدت لك النار الطاهرة، وقدم لك البخور والنعم السماوية والعجول والثيران، فتقبلها هدية شكر واعتراف بفضلك»

وجاء ذكر أعياد النيل فى مائدة للقرابين محفوظة فى متحف فلورانس ويرجع تاريخها الى ملوك الاسر الثلاث الاولى

وقال « ماسبيرو » فى هذا الموضوع « عند ما يصل الماء المقدس الى جدران مدينة « سيين » يقدم الكهنة أو الحاكم أو أحد نوابه ثوراً أو بطاً ويلقيه فى الماء فى حرز من البردى مختوم عليه ويكتب فى الحرز الأمر الملكى الخاص بنظام الفيضان ومتى ترأس الملك نفس هـذا الاحتفال نقشوا فى الصحراء وسجلوا هذا الحادث تذكاراً تاريخياً . واذا تغيب الملك عن الاحتفال ناب عنه الكهنة باحتفال عظيم ، حاملين تمثال المعبود سائرين به على ضفاف النيل والجسور مرتلين الأناشيد »

من المستندات الرسمية الباقية عندنا الآن شواهد السلاسل الثلاث ، ويرجع تاريخها الى عهد الملوك رعمسيس الثانى ، ومنفتاح ابنه ، ورعمسيس الثالث ، وهى تنقسم الى جملة أجزاء فبعد مقدمة رعمسيس الثانى تقرأ أنشودة النيل وخطاب الملك بالتهليل للمعبود ثم القرار الذى يحدد تاريخ الأعياد ويلحق به كشف القرابين وملخص ترجمته كالآتى :

« فى السنة الأولى والشهر الثالث من فصل الحصاد ، واليوم العاشر فى عهد المنير الشمس الملك القادر المحبوب من الحق ، صاحب التيجان حاكم مصر المنتصر على البلاد الجبلية حورس الذهبى المديد العمر المبارك ملك الوجهين البحرى والقبلى ، رعمسيس المحبوب من أمون أبو الآلهة الذى يمنحهم الحياة والبقاء والقوة كالشمس الى الأبد فليحى الإله الطيب النيل الذى يحيي النفوس بجوهره والثروة بثمراته . أنت أيها الوحيد الذى تظهر من نفسك ولا يعرف أحد ما تحويه ، والكل يفرح بظهورك من مخبئك فيك تربى الاسماك العديدة ومنك تفيض الخيرات على مصر ، فأنت خلقت لأجلنا ، ويسرُّ بك الناس والمعبود « نون » متى قدّم له القرابين أهالى البلاد ،

واتحدوا معه فى فرح التحية بقدوم النيل المضىء . نخيراته على البلاد تستفيض من صنع يديه وتتدفق ببركاته »

« وقد أمر الملك بتقديم القرابين لأبيه أمون رع ملك الآلهة مرتين فى السنة فى زمن مياه السلسلة المقدسة وفى مكانه المكرم الذى لم تكن قبله مياه . حياة وسلام وقوة

« فتقدم القرابين فى اليوم الأول من شهر سايت وفى الخامس عشر من شهر توت وفى الشهر الثالث من فصل الفيضان والخامس من شهر أبيب كضريبة سنوية »

« ويلقى فى النيل عجل أبيض وثلاث اوزات وهدايا ثمينة (لا بنت عذراء كما يزعمون) ثم الكتاب الشامل لتفصيلات المهرجان وأنواع الهدايا للاله أمون رع ملك الآلهة ورب مدينة طيبة »

ومهما اختلف المؤرخون فى تواريخ أعياد النيل ونماذج احتفالاتها فلا تخرج عباراتهم عن قول واحد وهو بذل جهدهم فى مظاهر الأفراح عند مبادىء الفيضان ، والى ذلك أشار العالم الأثرى « دى روجيه » اذ قال : « فى اليوم الخامس عشر من شهر توت جاء فيضان النيل فى سلسلة وفى ١٥ أبيب صعد النيل فقدمت القرابين والهدايا للمعبود « حعبى » وفى ذاك اليوم كانوا يلقون له ميثاقاً مكتوباً من ديوان الملك فيقبل النيل هذا العهـد ولا يتخلف عن وعوده فيمنح مواهبه أرض عبيده المؤمنين »

وفى نتيجة « مدينة هابو » تاريخ أعياد يحتفلون بها ويظهر أن قدماء المصريين كانوا يحتفلون فى يوم ٣٠ من شهر كيحك بعيد الصليب . قال « بروكش باشا » انهم كانوا يحتفلون بهذا العيد فى جملة مدائن مثل ادفو ودندره واسنا

وكانوا يجعلون لمقياس النيل عيداً خاصاً فيحمل مقياس النيل فى معبد سيرا پيس

وروى « سنيك » الفيلسوف الرومانى ان المصريين فى عهد الرومان كانوا يلقون فى نهر بيلاق القرابين ويلقى الحكام بعدها هداياهم من الذهب وأنواع الحلىّ

ولا زال تقليد الاحتفال باعياد النيل باقياً الى يومنا هذا ، ولا نعثر على نص مصرى يؤيد ما نسب الى قدماء المصريين عن تقديمهم ذبيحة بشرية فى حفلة فيضان أو لأجل أن يجود النيل على البلاد بفيضه السنوى

ويظهر أن منشأ هذه الخرافة قصة رواها « بلوتارك » المؤرخ اليونانى وتناقلها عنه غيره من قومه ومن الرومان ومن العرب اذ قال « اعتماداً على وحى اجيبتوس ملك مصر قدم ابنته قرباناً للنيل ليخفف غضب الآلهة وأنه بعد فقد ابنته ألقى بنفسه فى النيل

فهذا القول هو أصل الاعتقاد بتقديم فتاة عذراء قرباناً للنيل المعبود كل سنة . ويكفى أن البداهة الذوقية تكذب هذا الزعم بعد العلم الراسخ بما كان للمصريين من القدح المعلى فى المدنيـة ورقة الشعور وسمو العواطف حتى مع الحيوانات العجم ، فبالأولى تشمئز سجيتهم عن القاء فلذة كبد من اكبادهم فى مجرى المياه المتلاطم الأمواج التى لاتبقى شيئاً من ارهاق النفوس واختطاف الأرواح من أجسادها ، ولم يكن هناك أقل نسبة عقلية بين اقتراف هذا الجرم وانخداع النيل بارتكابه

أما ذكر عروس النيل بلفظة « ريت » المشار اليها فى ورقة « هريس. البردية» فيكفى فى اثبات أنه خرافة وخطأ انلفظة « ريت » هو علم على أحد

أشكال النيل المؤنثة وليس علماً على عروس كانت تلقى فى النيل كما زعم بعض المؤرخين . والقول باستمرار العادة بالهدايا الذهبية والطيور والحيوانات لا ضرر منه ، وغاية ما يلتمس به العذر هو التفاؤل بأن يكون الفيضان سخياً على مجموع الخلائق يجود بأهم ما تشتاقه النفوس

فى العصور الوسطى

استمر المصريون على ما ألفوه من عادات الأعياد ورسوم الحفلات ، ولم يغيروا حفاوتهم بها مع ما طرأ على ترتيباتها من التفاوت فى الرونق والأوضاع ومظاهر الزينة ، فهى كانت عرفية ووراثية وقومية ودينية الى أن جاء الفتح الاسلامى بمصر ، فمحا كثيراً من العادات ولا تزال بعض آثارها باقيـة الى يومنا هذا . وفى كثير من المتاحف بالمدائن الشهيرة بعض بقاياها الدالة على ما كان للنيل من المكانة فى النفوس ، والنيل من حيث هو منبع الفيض والخيرات يبقى بمكانته العمرانية فى ارفع مراتب التجلة والاحترام . فهو كما تقدم كأنه انتزع من مساحات الصحراء كميات وافرة كانت مجدبة فالبسها حلة الرغد والسخاء وجعل القاطنين بها أغنياء بعد الفقر ، وذوى سعة ويسار بعد ان كانوا فى حضيض الفاقة والضنك

ولا زال الاحتفال بمهرجان النيل متبعا فى نوعيته الى الآن فكأن المصريين فى محافظتهم على تقاليد آبائهم افترضوا على حكامهم احترام تقاليدهم وعقيدتهم فى النيل المقدس

وكان من عقيدتهم فى عهد الفراعنة ان دمعة المعبودة ازيس تنزل فى النيل وتسبب فيضانه فبقيت هذه العقيدة الى العصر المسيحى ، وظن الاقباط أن النيل يفيض بنقطة إلهية تنزل من السماء ، ونجد فى النتيجة السنوية القبطية

أنه قبل انقلاب الشمس فى الصيف بأربعة أيام أى فى اليوم الحادى عشر من شهر بؤونه يحتفل بعيد ليلة النقطة السماوية التى تطهر الهواء وترفع الطاعون عن الأرض ، ويقول البعض إن جبرائيل رئيس الملائكة يصلى قبل ذلك بثلاثة أيام ويدعو حتى تفيض مياه النيل فيسجد ويتوسل الى ربه بأن يفيض النيل وينزل الى الأرض المطر والندى ، ويحمل فى يديه سيفاً لطرد الشيطان واليه فيما يقولون يرجع فضل نزول النقطة الالهية

فالاقباط حافظوا على تقليدهم القديم حتى أتت النصرانيـة وجعلوا يوم نزول النقطة عيداً وقد جاء فى بعض النصوص ذكر النقطة السماوية وليلة موج الدموع وان قصة قتال جبرائيل رئيس الملائكة للشيطان تشبه كثيراً قصة حورس المنتقم لأبيه من ست ، وأبيه ازوريس رمز الأرض السوداء المخصبة وست رمز الصحراء المجدبة

ومتى حان وقت نزول النقطة يتوالى الفيضان ويرتفع الى درجته المعلومة ،ومن العادات المألوفة الى اليوم أن بعض الناس اتخذوا المناداة للتبشير بمبادىء الفيضان فى أوائله سبباً للارتزاق بما يسديه اليهم الناس عند هذه البشرى ، فيهنىء بعضهم بعضاً بحلول موسم النيل كالتهانى المألوفة فى الأعياد السنوية

ثم يأتى عيد زواج النيل والاحتفال بقطع الخليج والقول بزواج النيل مبنى على تلك القصة الخرافية قصة القاء فتاة فى النيل تلك الفتاة التى استبدل بها الى عهـد قريب تمثال من الخشب يحلى بملابس ويزين بالقصب ونحوه وأما الاحتفال بالنيل والقاء النقود ونحوها فى مجراه فهذا على سبيل التفاؤل كما تقدم . ومن التماثيل الموجودة فى متحف اللوفر تمثال رمزى يمثل النسر من صنع مدينـة الاسكندرية وهو يشبه أحد تماثيل النيل المحفوظة إلى الآن بمتحف الفاتيكان فى رومه

فى العصور الحديثة

نقل المقريزى فى خططه عن ابن الحكم(١) من اخبار مصر أنه فى سنة ٢٣ بعد الهجرة لما افتتحها عمرو بن العاص جاء اليه الأقباط وقالوا ان للنيل سنة لا يجرى إلا بها، قال وما هى فقالوا اذا خلت اثنتا عشرة ليلة من شهر بؤونة من الشهور القبطية عمدنا الى جارية بكر مليحة نأخذها من أبويها غصبا ونجعل عليها الحلى والحلل، ثم نلقيها فى بحر النيل فى مكان معلوم عندنا. فلما سمع كلامهم قال هذا لا يكون فى الاسلام أبداً، فأقام أهل مصر أربعة أشهر بؤونة وأبيب ومسرى وتوت لم يزد فيها النيل لا كثيراً ولا قليلاً. ولما رأوا ذلك هموا بالجلاء عنها، ولما رأى عمرو بن العاص منهم ذلك كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلما وصل اليه ذلك الكتاب وعلم مافيه كتب بطاقة وأرسلها الى عمرو بن العاص وأمره أن يلقيها فى نهر النيل، فلما وصلت اليه تلك البطاقة فتحها فاذا مكتوب فيها:

« بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب الى نيل مصر المبارك، أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وان كان الله تعالى هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك » فلما وقف عمرو بن العاص رضى الله عنه على مافى البطاقة ألقاها فى بحر النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد، وعيد الصليب يكون فى السابع عشر من شهر توت فأجرى الله تعالى النيل فى تلك الليلة ستة عشرة ذراعاً فى دفعة واحدة

وروى بعض السائحين بمصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد أن المصريين استبدلوا بالفتاة البكر عروساً من الخشب يلقونها فى

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصرى صاحب كتاب فتوح مصر وغيره وتوفى سنة ٢٥٧ هـ (سنة ٧٨٠ م)

النيل وهذه الآثار باقية من العهد القديم واليك وصف الاحتفال :

يتألف الموكب من حاكم البلد وطوائف عديدة من الأقباط والعلماء والأعيان ورجال الدين والبطرك وفريق من رجال الاكليروس وتتبعهم الموسيقى وخلفها الجماهير يصفقون ويترنمون بالأناشيد ، ثم يلقون العروس فى النيل وقت فتح الخليج

ثم اتبع الأقباط عادة أخرى فى الاحتفال فى عيد الشهداء الواقع فى بشنس فكانوا يلقون فى النيل أصبع أحد أجدادهم موضوعاً فى علبة كما رواه المقريزى وذكر أن السلطان قلاوون حاكم مصر أبطل هذه العادة سنة ٧٠٢هـ

ولما أتى بونابرت مصر ترأس حفلة النيل باعتباره اكبر حاكم للبلاد ولا يزال المصريون يحتفلون بوفاء النيل ، ويقيمون الأفراح فى كل الجهات احتفالاً به فيكون بالرونق والزينات عيداً مشهوداً

وروى المؤرخون اليونانيون أنه كان لكل اقليم من الأقاليم المصرية القديمة آلهة خاصة إلاّ أن جميع القدماء أجمعوا على تقديم فرائض خاصة للنيل ، وكان لفيضانه العجيب احتفال سنوى كعيد يبتهج به جميع أفراد الشعب

وكان من عقائد القدماء أن لكل شيء روحاً وحياة وإرادة وشخصية سامية من هبات المعبود الأعلى ، وان النيل يشفى من الأمراض وأن الأقباط والمسلمين وان كانوا أبطلوا الاعتقاد بألوهية النيل ، لكنهم لا يزالون يصفونه بقولهم النيل المبارك . وفى زمن فيضانه كان البطرك يذهب الى النيل مصحوباً بحاشيته الى مصر العتيقة ويلقى فى النيل صليباً من الفضة . وكان الترك يحتفلون به رسمياً ، ومتى انتهى الاحتفال كانت الجماهير تلقى فى النيل الحبوب والثمار والسكر والخبز والدراهم ويغتسل الأطفال فى مياه النيل ، وبعض الناس يغتسلون أيضاً باول ماء يمر فى الخليج طلباً للشفاء وازالة العقم

وكان من المتبع قبل اليوم المحدد لجعله يوم وفاء النيل ان يضعوا فى مصر العتيقة تمثالين كبيرين عليهما أنوار مركبة على منصة من الخشب مسندة على مراكب وهذان التمثالان يمثلان رجلاً وامرأة ويسميان العروسين

وكان من عادتهم صنع عروس أخرى من الطين ويلقونها فى النيل يوم الفيضان

وقال « هيردوت » ان المصريين كانوا يكرهون ذبح الحيوانات فمعقول جداً أن يترفعوا عن ازهاق الأرواح التى قيل إنهم يقدمونها كقربان وضحية طلباً لوفاء النيل

وليلاحظ ان كل أمة يدخل عليها دين جديد ينشر عنها خرافات كثيرة واذا تأملنا رواية ابن الحكم والناقلين عنه كالمقريزى وغيره ، يتضح لنا انها خرافة مخترعة . نعم ان ابن الحكم نقل هذه الرواية عن اليونان كما نقل غيره اكاذيب أخرى فى كتاب عنوانه « الأنهار » نسبوه الى « بلوارك » ودونوا به ان أحد ملوك مصر لما أبطأ فيضان النيل فى بعض السنين ألقى ابنته فيه بأمر الآلهة . واشتهر فى الروايات ان الاحتفال يمثل (زواج النيل الذى هو ازوريس بأرض مصر التى تمثل ازيس) فالمرجع فى كل الروايات الى تصور خيالى ليس إلاّ

رسوم النيل
فى الآثار المصرية

قد اطلع القارىء على تفصيلات وافية تبين أن حياة الشعب المصرى تتوقف على تحسين أحوال الرى وانتظامه، ليكون من فيض النيل الخير الشامل واغداق الثروة ورواج الأحوال التجارية. وقد نقش اسم النيل فى جميع المعابد دلالة على أن القدماء كانوا يعتبرونه إلهاً يمنح الحياة والسعادة. وجاء فى الفصل ١٤٦ من كتاب الموتى « أن الآلهة تشترك فى إسداء نعمه » ونقشوه فى بعض المعابد كتمثال انسان واقف يحمل القرابين ويهبها بسخاء لجميع الخلائق من انسان وحيوان

وفى كثير من الأمكنة ترى رسوم الاحتفالات بوفاء النيل لاسيما فى معابد ادفو ودندرة. وهناك ترى النيل ماراً بادراج السلم، خارجاً من ناووسه كما يخرج كل سنة من مجراه لزينة الدنيا وخصب الأودية وتدبيج وجه الأرض بالنباتات المتنوعة التى تستفيد منها الناس الغذاء والحاصلات المتنوعة ويقتنون الثروة فكأن ارض مصر مستودعات للنفائس الكونية بأنواعها تجوز منها على كل البقاع بما تحتاجه

وهناك أيضاً رسم آخر يمثل النيل خارجاً من سلم (كما يخرج من مجراه) ليملأ الأرض بالحبوب معبراً عن إعطاء الآلهة الحياة والهناء لأن من نباتات النيل تتقدم حياة الحيوانات والانسان والطيور الخ.

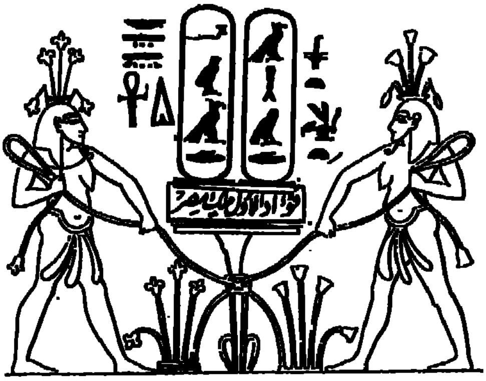
وكأن النيل يخاطب البلاد بلسان حاله بأنه مصدر رخائها وينبوع حياتها، وانه يجود بخيراته على كل من تقلهم أى أرض سرى اليها فيضه، فيمنحها نعماً

مزيلة وخيرات متجددة ، ويؤدى للآلهة المحترمة كل شعائر الأجلال والتقديس

فالنيل بهذا الاعتبار من المعبودات الثانوية بدليل أنهم كانوا يرسمونه دائماً فى المعابد بالجزء الأسفل وانه كخادم يهيء جميع الأشياء الجيدة والقرابين التى يقدمها للأرض ومن عليها

ووجد فى تمثال محفوظ بالمتحف البريطانى بالجزء المصرى نقوش تمثل الملك ششنق وحوله العبارة الآتية « يقول حعبي النيل ابن الآلهة ومصدر النمو الذى يفيض على الوجهين القبلى والبحرى بخيراته المتدفقة فتسعد بها الحياة ، وتنكشف الشدائد وتنصب منه المياه على الجبلين والحوضين كيف يشأ ، ويعود متى أراد بعد أن يملأ المدائن والقرى بالمؤن والحاصلات الزراعية

فكأن هذه النقوش تصف مزايا النيل التى امتاز به واديه فى الخصب والرخاء وجعلته مصداق قول القائلين بأن النيل أب الآلهة والبشر واذا كانت جميع الكائنات تستمد حياتها من مصدر إلهى فالنيل هو اكبر المظاهر الباهرة لهذا المصدر الأسمى .



رسم النيلين نيل الوجه البحرى (الى اليمين) ونيل الوجه القبلى (الى اليسار) وهما يحملان علامة الاتحاد وعليها اسم مليكنا المعظم فؤاد الاول باللغتين المصرية القديمة والعربية

أنشودة النيل

لقدماء المصريين

من لوازم الفطرة الراقية ابتكار الأناشيد فى المناسبات التى ترتاح النفوس فيها الى الترنم بما يستطاب لأجلها افتخاراً واستلذاذاً واستبقاء لحسن الأحدوثة، فيتداول الناس الأناشيد كلما تجددت الذكرى للاحتفالات، والنيل عند قدماء المصريين قد اختصوه بما ألفوا من مظاهر الافراح ودلائل المسرات عند فيضانه ومواسم أعياده وقد خصوه بأناشيد رائعة تعرب عن شدة شعورهم ومن بينها الأنشودة التى نمقها فى عصره الشاعر المصرى القديم ووجدت مكتوبة فى لوحتين على الورق البردى معروفتين بورقتى ساليير وأنسطاسى وهما من مجموعة الأوراق البردية المحتفظ بها الى الآن فى المتحف البريطانى وترجمها العالمان الأثريان الشهيران ماسبرو وجبس وهما اللذان نقلاها من الشعر المصرى القديم . وترجمتها الى العربية نظماً من الرجز:

(١)

نسدى الى النيل سلاماً عاطراً — لأنه قد جاءنا مباكراً
اليوم عيد النيل فى بشراه — فكلنا نسرُّنا لقياه
النيل يحيي فيضه بلاده — وهي له تلازم العباده
منظره يروق للأبصار — وسره معجزة الأفكار
النيل يأتينا من الظلمات — ليملأ الأكوان بالخيرات
يروى نداه أنضر الحدائق — وينبت الأرزاق للخلائق
كأنه يأتى من السماء — ليمنح الحياة للأحياء
يحيي موات الأرض فى النواحى — كأنه من عاملى فتاح
يجود بالخير (لسبّ) محسناً — كما (لنبرا) قد أقرّ الأعينا

(٢)

النيل رب السمك المحبوب   يأتى به من عالم الغيوب
ويخصب النبات فى الغيطان   والزهر والريحان فى البستان
ينبت قمحاً وشعيراً جيداً   ولن يصد النيل عنه أحداً
بالنيل ينجو من شقاء الدهر   كل فقير من أهالى مصر
فى نعمة النيل لهذا الوادى   سعادة الحكام والأفراد
والبطء فى الفيض يضر الخلقا   ويغضب الرب الرحيم حقا

(٣)

فيوضه تأتيه من أتوم   فنجتنى من خيره المقسوم
وتنتفى أوهام كل خائف   بالنيل فهو مصدر اللطائف

(٤)

كأنك الخالق للأشياء   ومانح الضعاف بالنماء
ومن نداك نمنح القربانا   فلا نخاف بعده هوانا
كلُّ غنىٍّ منك يرجو نعمته   ويمنح المحتاج منها رحمته
فأنت للغنىّ والفقير   ملجأ كل الخير والتيسير

(٥)

أنت رئيس سفن الحياة   تسرى بها لساحل النجاة
أسرار مجراك علينا خفيت   لكن مزاياك لدينا عظمت
فلستَ محتاجاً الى قربان   ولست تخشى خدع الانسان

(٦)

ولست محتاجاً الى مكان   فأنت رب الفيض والاحسان
يلقاك بالتصفيق عند اللقيا   مستبشرين كلُّ من فى الدنيا
فأنت تحيي مهجة الظمآن   وحارس الملوك والتيجان

(٧)

منك المعونات على الدوام مقرونة بالحمد والاعظام
وأمرك المطاع فى البلدان تقبله النفوس بالاذعان
وتملأ القلوب حباً صادقا وتجعل الكون بشكر ناطقا
اولاد «سبك» منك فى افراح واهل «نيق» بك فى انشراح
كأنما دائرة الموجود أمام مجراك من الجنود
يغنى العباد عن شقاء الجهد فيضك اذ يأتى بكلّ رغد

(٨)

يضىء منك الماء حين يبدو بعد الظلام وهو ما تودّ
لم تتخذ فيها ترى أعوانا ولم تدع لحاكم سلطانا
فأنت روح الكل فى الوجود أنعم بفيض النيل من مقصود

(٩)

تأتى وتمضى طبق ما تريد وكم تطيع ربها العبيد
وكل ثوب من هموم ماضية تنزعه بشرى التلاقى الزاهية
فأنت للسقام نعم البلسم ومنك للجميع تصفو الأنعم
تجيب بالفيض رجاء الامة وتصطفيها بعميم الرحمة
يحوى ثراك أنفس المعادن فتكثر الأموال فى الخزائن
لكنّ بالقمح حياة الناس وليس بالأموال فى القرطاس

(١٠)

فى عيدك الصغار والكبار تطربها الطبول والمزمار
ويستطاب الأنس والسرور ويتباهى بالصفا الجمهور
فأنت حقاً زينة البلاد ومصدر الخيرات والاسعاد

(١١)

وكلما جئت الى العواصم أسديت فيها أعظم المغانم
فيفرح الغنى والفقير ان لم يعق فيوضك التأخير
وهكذا مسرة الأقوام يحبونها فى سائر الأعوام

(١٢)

نهدى اليك الطيب والعجولا وكل قربان نرى مقبولا
ونوقد النيران والبخورا ونملأ الدنيا بها سرورا
تخرج من (بتيو) وتأتى طيبه كستهام زائر حبيبه
وكل ما يحويه سرُّ النيل لم نكتشف منه سوى القليل

(١٣)

مصر تمد النيل ربًّا ساميًا فاجعل لنا بالفيض حظًّا ناميا
واجعل بنى النيل على سواهم يرقون شأنًا رغم من عاداهم
آمين . آمين . آمين

وكان قدماء المصريين باعتيادهم الترنم بهذه الأنشودة يعتنون بتوقيعها على أوضاع الآلات الموسيقية ليكون لوقعها فى النفوس طرب النشوة الموسيقية والانشراح القولىّ، ولا زلنا الى العصر الحالى نتلقى من عوام المنادين الذين يطوفون وحولهم الغلمان فى الأزقة والحوارى ما هو بلا شك صدى متتابع من ترديد هذه النغمات أيام الفيضان

ومن اولئك المنادين من يقتصر فيما يلقيه على غلمانه بأناشيد مختصرة ونغمات مقتضبة ، ومنهم من يجعل كلماته على نسق السجع المرصع الذى طرأ عليه التحريف العامى فى النطق والتلحين بما لا يخرج فى معناه عن القول الآتى : إنك أيها النيل المبارك صاحب القوة العظيمة ومنك تتدفق الكنوز

وتفيض الخيرات على أرض مصر ، بارك الله فى فيضانك وأدامك متدفقاً بالخير والبركة على البلاد والأودية والبساتين والمزارع يشكر نعماءك الانس والحيوان والطيور فى أوكارها ، والحيتان فى أغوارها .

فاذا كانت عبادة النيل بصفته الهاً كما كان يمجده به قدماء المصريين فى حفلاتهم ومعابدهم فمقابلته بالتحية والبشاشة والفرح والسرور عند مبادىء أشهر فيضانه آثار باقية من العواطف القومية لدى الأمة المصرية بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات والتطورات العصرية

الشعر العربى

فى مدح النيل

علم القراء أن النيل من أجلّ المواهب الإلهية على هذه البلاد ، وأن هذه الهبة الأبدية لم تستطع أيدى التغاب الدولى بخسه حقه من الكرامة والاحترام فهو ينبوع الحيـاة للأرض ومن عليها . فمع تعاقب الدول فى الاستعمار والتملك بقى النيل متسامياً على كل قوة يمنح البلاد من الرخاء والسعادة ما يشجعها على معاصرة الجبابرة ومكافحة طوارئ الدهور حتى أن اليونان والرومان لم يجحدوا ما للنيل من القوة الفعالة فى المزايا العمرانية التى اختصت بها تربة الأراضى المصرية . وأتى العرب بعدهم فأجادوا وأبدعوا فى وصف النيل والتحدث بمواهبه وتقديراً لما أبرزوه من آيات البلاغة فى هذا المضمار نثبت المقتطفات من قصائد مطولة تناقلتها التواريخ العربية كالمقريزى وغيره ومنها قوله :

كان النيل رزقهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم اليه ويمضى حين يستغنون عنه

قال المسعودى فى تاريخه قال بعض الشعراء يصف مصر

مصر ومصراً شأنها عجيب   ونيلها يجرى به الجنوب

قيل فى مصر عدة قصائد ومقطعات فى كل سنة منها ما قاله الشيخ صلاح الدين خليل ابن ايبك الصفدى

لم لا أهيم بمصر   وأرتضيها وأعشق
وما ترى العين أحلى   من مائها إن تدفق

وفى المعنى للشيخ زين الدين عمر بن الوردى

ديار مصر هى الدنيا وساكنها   هم الأنام فقابلها بتقبيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها   مصر مقدمة والشرح للنيل

وأبدع منه ما قيل فى المعنى أيضاً لابن سلام

لعمرك ما مصر بمصر وانما   هى الجنة العليا لمن يتذكر
وأولادها الولدان من نسل آدم   وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وللقاضى شهاب الدين احمد بن فضل الله العمرى فى المعنى

ما مثل مصر فى زمان ربيعها   بصفاء ماء واعتدال نسيم
أقسمت ما تحوى البلاد نظيرها   لما نظرت الى جمال وسيم

لمصر فضل باهر   لعيشها الرغد النضر
فى كل سفح تلتقى   ماء الحياة والخضر

ولابن الصايغ الحنفى فى المعنى واجاد

أرض بمصر فتلك أرض   من كل فن بها فنون
ونيلها العذب ذاك بحر   ما نظرت مثله العيون

وغيره فى المعنى

النيـل قال وقوله ... اذ قال ملء مسامعى
فى غيظ من طلب العلا ... عم البـلاد منافعى
وعيونهم بعـد الوفا ... أقلعتها بأصابعى

وللشريف العقيلى فى المعنى

أحن الى الفسطاط شوقاً وأننى ... لأدعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لحياتها ... وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ولو خشية الإطالة لذكرنا من هذا نبذ كثيرة . ومن أراد الاكثار من ذلك فليراجع تاريخ « حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور » فقد ذكر من ذلك عدة مقطعات عند وفاء النيل فى كل سنة من كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة تأليف جمال الدين أبى المحاسن يوسف ابن المرحوم تعرى بردى الاتابكى

عبادة النيل

المعبود أزوريس هو النيل — النيل السمائى والنيل المائى

النيل على شكل انسان

معلوم أن قدماء المصريين كانوا على جانب عظيم من التعلق بمعتقداتهم الدينية ، وكانوا يجعلون لكل شيء عظيم النفع إلهاً خاصا يقدمون اليه عبادتهم فى أوقات يحددونها لما اشتهر عندهم من خواص هذا الشيء ، فكانوا يقيمون للنيل العبادات المتعددة فى أوائل الفيضان وفى عيد الصليب وغيره مما مرّ بنا إيضاحه

وقد استعمل المؤرخون اليونان والرومان حد التطرف ومنتهى الغلو فيما تكلموا به عن معتقدات وعبادات المصريين مع كونهم لم يعرفوا لغة البلاد الحقيقية التى تمكنهم من الوصول الى سر هذه العقائد والعبادات ، ونشروا فى مؤلفاتهم افتراء شنيعاً على المصريين وقالوا إن عبادتهم كانت قاصرة على الأصنام حتى قال بوسييه فى كتابه (خطاب فى التاريخ العالمى الجزء الثالث) « كان كل شيء إلهاً فى مصر ما عدا الله تعالى » ولا ينبغى أن تأخذنا الدهشة لهذا الافتراء الصادر عن جهالة قائليه ، فان الزائر المتحف عندما يشاهد الآثار الموجودة ، ويرى تماثيل الآلهة ونحوها يعتقد أن لتلك الطائفة فى معتقداتها أسراراً باهرة وآداباً سامية ، فما كانوا يعظمون آلهتهم وملوكهم إلاّ لإعتقادهم فيها الوسيلة والزلفى لدى الله الذى هو الاله الاكبر الذى تدين الكائنات لعظمة قدرته

ولم يكن اشتغال الشعب المصرى بالابداع فى الرموز والتصاوير الا من باب التوسع فى الفراسة الذهنية والتفنن الذوقى فى انتقاء ما يعتقدون به نوال القربى لدى هذه الآلهة الثانوية .

وقد قال اكايمندس الاسكندرى الذى جاء مصر فى عصور الأضمحلال لديانة القدماء الحقيقية انهم كانوا يصورون آلهتهم بمنظر وحش يتمرغ على بساط من أرجوان ، وانهم كانوا يقدمون للنيل فى مواسم الفيضان ونحوه عبادة خاصة باعتبار أنه المصدر الأقوى لحياتهم الزراعية والعمرانية

وقد عثر على حجر يرجع تاريخه الى الأسرة الرابعة منسوب لابنة الملك خوفو تكلمت فيه عن عبادة المصريين للنيل ، ولم تعلم لنا منه الأماكن التى كانت معدّة لهذا التعبد وذكرت عبادته فى مدينة ممفيس

وكان بيت النيل (ولعله منبعه) يدعى فى المدن الأخرى باللغة المصرية القديمة (باحعبى) وأشهر هذه المدن تسمى (هاحعبى) أى قصر النيل وعلم مما اكتشف أخيراً على حجر من السرابيوم أن هذه المدينة هى مدينة هليوبوليس .

ووجد منقوشاً على مائدة للقرابين محفوظة اليوم فى متحف فلورانس ويرجع تاريخها الى الأسرة الثالثة عبارات ببيان الأحتفالات الدينية التى يقيمها المصريون اكراماً للنيل المبارك وان عبادته يرجع تاريخها الى العصور الأولى وكان عند قدماء المصريين معدوداً من الآلهة الثانوية

والحقيقة ان القيام بالعبادات للنيل كان عاماً بأنحاء القطر ولم يكن مختصاً بجهة دون أخرى ، وفقط كانت بعض البلاد تمتاز بفخامة معابدها ومبانيها ونقشوا فيها احتفالات النيل مثل معابد الكرنك وادفو ودندرة ومدينة هابو

وكان النيل يمثل فى هذه المعابد على شكل إله طبيعى ويعبدونه باعتقادهم فيه الاقدمية والدهرية

وكانوا يمثلونه بصفته إلهاً مقدساً (حعبي) ويلقبونه اله الخصب والاب المربي على شكل رجل في ريعان الشباب ممتلىء سمناً ونشاطاً كرجل مترف غني من العظماء يعلق على تمثاله حلياً في الصدر يشبه ثدي المرأة وبطنه مطوية من الشحم وفخذاه ثابتتان مدورتان أشبه منظر بالغادة الحسناء ونقشت فوقه هذه الكلمات باللغة المصرية القديمة (عنخ ، اوزا ، سنب) ومعناها الحياة والصحة والقوة . وهكذا كان المصريون يمثلون رسم رجالهم الأغنياء العظماء

ومن تماثيل النيل ما هو مختلف اللون فبعضها احمر وبعضها أزرق يحمل على رأسه النباتين البردي واللوطس رمزاً الى الوجهين القبلي والبحري . وبعض هذه التماثيل مرسوم على جدران معبد سيتي الاول بابيدوس ومعابد ادفو ودندرة لأن عبادة النيل كانت منتشرة في جميع الأقاليم كما تقدم

وترى بالمتحف المصري بالطبقة السفلى الغربية تمثالين لنيل الوجه القبلي والنيل لوجه البحري حاملين الأسماك والطيور والأزهار ليقدماها هدية للملك وكثيراً ما يمثل النيل في كتاب الموتى بصفته الرمزية . وقد نقش على صفحة سلسلة أن النيل هو ابو الآلهة وانه خرج من نفسه

ومن الغريب ان قدماء المصريين شيدوا معابد كثيرة لآلهتهم ولم يقيموا معبداً للنيل ، بل نقرأ اسمه منقوشاً على جدران المعابد وقواعد المسلات وكان له فيها رجال يتخصصون لخدمته .

وروى هيردوت أنه كان من عاداتهم انتشال جثة من يموت غريقاً أو يبتلعه تمساح ودفنها بالإكرام والتعظيم

وكانوا يعتقدون ان النيل المؤلَّه يقيم في جزيرة بيجا (وان خزانته) منبعه موجود هناك وكانوا يعتقدون انه آتٍ من نون وهو الفضاء الاول الموجود وانما ليس له ابتداء ، وان الإله حعبي يتحد مع ازيس في ضمانة البقاء الأبدي له

ولهذا اعتادوا ان يجعلوا اليد اليسرى لمن يموت فى ست لفائف ويرسمون عليها اسم النيل والمعبودة ازيس وفى بعض المدارس اللاهوتية ان النيل (حعبى باتحاده مع ازيس زوجة المعبود ازوريس) هو الفيضان الذى يخصب ارض مصر

واعتقد قدماء المصريين ان الدار الآخرة تشبه الحياة الدنيا وانه يوجد بها نيل كنيل مصر ، واعتقدوا ان جنتهم واد منحصر بين جبلين يفصلهما نهر تمرُّ فيه سفينة الشمس وان مياهه تمر من الغرب الى الشمال حتى منتصف المسافة ، وتنزل فى المجرى ذاته من الشمال الى الغرب ، وان ازيس بكت زوجها ازوريس فى هذا النهر . ولما نزلت فيه مدامعها تفجرت مياهه وسببت هذا الفيضان الأرضى ، وكانت المياه السماوية تحوط الجنة والشمس تطوف حول مجرى هذه المياه التى تغطى هذه الدنيا تماماً وتفصلها عن السماء

ومتى اختفت الشمس فى الأفق تمر سفينتها فى المياه السماوية وان سفينة الشمس تمر بالليل فى وادى الأموات ودعوا النيل الشهير (الجندى) وان الأموات فى الدار الآخرة تمرُّ فى سفينة الإله رع

ومن هذا يتبين للقارىء انه لم يكن عندهم سوى نيلين النيل السماوى والنيل الأرضى وهو نيل مصر

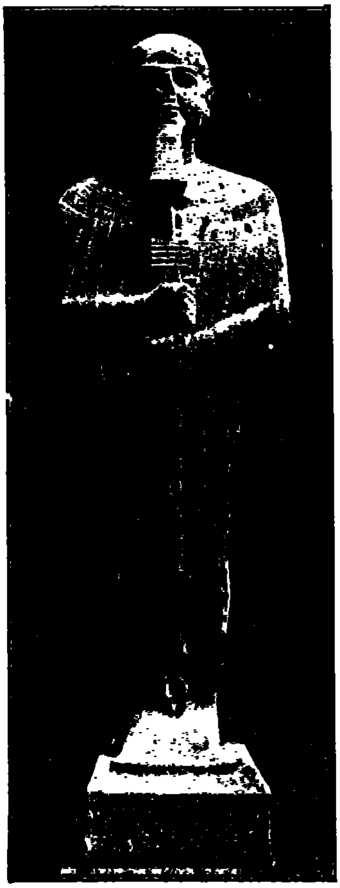
آلهة الأنهر — ثالوث بيلاق — العجل أبيس وسيرابيس

قصص خرافية عن النيل — ما أشيع عن النيل

كما اعتقد المصريون فى النيل مزايا الألوهية ولقبوه أنه أب الآلهة وأنه الاله حعبى كانت لهم أيضاً آلهة أخرى لأنهار كثيرة ورؤوسها على أشكال اكباش وآلهة الشلال وثالوث بيلاق

فمنها أزوريس اله مندس وخونسو إله الشلال (وحرشافيتو) إله مدينة

هيراكليوبوليس الكبرى وكل منهم هيأ قسماً من النيل فى دائرة المنطقة المسماة باسمه لتستمد بمعوناته وفيوضاته حظها من الخصب والرخاء



فتاح إله مدينة ممفيس
محنط الجسم والأصل بالمتحف المصرى

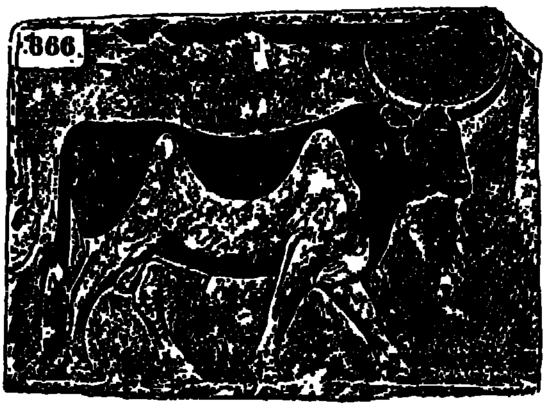
قال هيردوت كان أهالى مندس يكرّمون كثيراً جنس المعز . واذا ماتت واحدة من فصيلتها ، أقاموا لها حداداً فى كل أقليم . ولفظة مندس كلمة مصرية قديمة معناها تيس ، وكان مرشافيتو معبود هيراكليوبوليس الكبرى ومعبود النيل أيضاً وثالوث بيلاق هوخونسو وأتوكيت وساتيت وخونسو كلمة مصرية قديمة معناها رئيس البنائين وأتوكيت معناها الحاضنة وساتيت معناها رامية السهام

وثالوث بيلاق يرجع تاريخه الى أقدم العصور .وكان خنوم أحد الآلهة المعبودين فى ذلك الأقليم يرسم فى جهة برأس كبش وفى غيرها برأس آدمى واسمه القديم توم وفى عصر البطالسة صاروا ينطقونه بلفظ خنوم ومعناه جمّع

وقد شبهوا فتاح إله مدينة ممفيس بالنيل وأنه يشبه أزوريس فى كونه كالشمس الليلية ، وأنه الإله الأول

والعجل أبيس من آلهة النيل أيضاً وقال رولين قد أذاعوا عن العجل

أبيس أنه يجمع بين الحيوانات وشيدوا له المعابد وكانوا يقدمون له فروض الأكرام فاذا مات يحزن له جميع المصريين ويقيمون المآتم ثم يبحثون عمن يختارون بديلاً منه بعلامات خاصة ويميزونه بغرة بيضاء فى جبهته على شكل الهلال وعلى ظهره رسم صقر وعلى لسانه رسم جعل (جعران) فمتى عثروا على من تتوفر فيه هذه الصفات انتخبوه وبدلت أتراحهم أفراحا



العجل ابيس
الاصل بالمتحف المصرى

وقال بلوتارك ان العجل أبيس هو الصورة الحية لأزوريس ولا يتجاوز عمره ٢٥ سنة . فمتى بلغ هذا السن أماتوه وألقوه فى النيل بكل اجلال واحترام ودفنوه فى السرابيوم وبموته يصبح أزوريس . وكلمة سرابيوم مأخوذة من اسم (أسر حعبى) الذى حرفه اليونان الى لفظة سيرابيس

وترجع عبادة العجل (أبيس) الى أقدم العصور التاريخية وقد ذكرت فى شاهد لابنة الملك خوفو من الأسرة الرابعة وكانت عبادته أكثر انتشاراً فى عهد الأسر الثلاثة الأولى لاسيما فى عهد البطالسة . وقد وصف اكليمندس الاسكندرى والقديس اغسطينوس جمال هذا الإله وقالا إنهم شيدوا له معبداً فخما اشتهر بمعبد السرابيوم الذى كان احدى عجائب الاسكندرية فى عهد البطالسة

وجميع الرسوم والتماثيل تمثل لعقولنا مقدار عظمتهم العصرية وعنايتهم بان تبقى آثارهم مدى الأجيال تتنبأ عنها الشعوب متمدحة بعظمة النيل واعظامهم له لأن كل دولة احتلت مصر سواء فى العصور القديمة أو الحديثة تعترف بما للنيل من الأيادى البيضاء الخالدة فى أعناق كل من شملتهم سعة واديهم المبارك

ذكر شيء من فضائل النيل

قال المقريزى : أخرج مسلم من حديث أنس رضى الله عنه فى حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم رُفعت لى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال هـذه سدرة المنتهى واذا أربعة انهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ما هذا ياجبريل قال أما الباطنان فنهران فى الجنة واما الظاهران فالنيل والفرات

وقد ذكر اسم النيل فى التوراة (يور) « تخرج من النيل البقرات التى رآها فرعون فى الحلم » (سفر التكوين الفصل ٤١ الأعداد ١ـ ٣) « أمر فرعون ان يلقى فى النيل أبناء العبرانيين الذكور » (سفر الخروج ١—١٢٢) « ألقى موسى فى النيل فى سبت من الخيزران والتقطته ابنة فرعون » (سفر الخروج الفصل الثانى الأعداد ٣—٦) — « أخذ ماء من النيل وألقاها فى الأرض فتحولت الى دم » (سفر الخروج الفصل الرابع العدد التاسع) — « اخرج موسى من النيل الضفاضع التى اتلفت أراضى مصر » (سفر الخروج الفصل الثامن الأعداد ٥—١٣)

وذكر الأنبياء اسم النيل فى كتاب العهد القديم (اشعيا الفصل ١١ العدد ٦) « مياه النيل مياه البحر » ويصف ارميا مجرى النيل فى الفصل ٤٦ الأعداد ٧ — ٨ وقال ناعوم فى الفصل الثالث العدد الثامن « كان هذا البحر سوراً لمدينة طيبة الخ

وفى التوراة وخلق فردوساً فى عدن وجعل الأنسان فيه واخرج منه نهراً ينقسم أربعة أجزاء فيسون المحيط بأرض حويلا وجيحون المحيط بأرض كوش وهو نيل مصر ودجلة الآخذ الى العراق والفرات . وروى ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه انه قال نيل مصر سيّد الأنهار سخّر الله له كل نهر من المشرق والمغرب فاذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه فأمدته الأنهار بمائها وفجر الله الأرض عيوناً فاذا انتهت جريته الى ما أراد الله عز وجل اوحى الى كل ماء ان يرجع الى عنصره

وعن يزيد بن أبى حبيب أن معاوية بن ابى سفيان رضى الله عنه سأل كعب الاحبار هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله خبراً قال أى والذى فلق البحر لموسى إنى لأجده فى كتاب الله أن الله يوحى إليه فى كل عام مرتين يوحى عند جريته أن الله يأمرك أن تجرى فيجرى ما كتب الله له ثم يوحى إليه بعد ذلك يا نيل غُرْ حميداً

وعن كعب الاحبار رضى الله عنه أنه قال أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا فالنيل نهر العسل فى الجنة والفرات نهر الخمر فى الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن فى الجنة

وقال المسعودى نهر النيل من سادات الأنهار واشراف البحار لأنه يخرج من الجنة على ما ورد به خبر الشريعة

وقد قالت العرب إن النيل إذا زاد غاضت له الأنهار والأعين والآبار وإذا غاض زادت فزيادته من غيضها وغيضه من زيادتها وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحراً غير نيل مصر لكبره واستبحاره

وقال ابن قتيبة فى كتابه غريب الحديث وفى حديثه عم نهران مؤمنان ونهران كافران أما المؤمنان فالنيل والفرات وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ انما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤونة وجعل دجلة ونهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان شيئاً إلا قليلاً وذلك القليل بتعب ومؤونة فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين (ا هـ)



فهرست الكتاب

فهرست الرسوم الموجودة في هذا الكتاب